الفصل الرابع

هجرة الحبشة، ومحنة الطائف، ومنحة الإسراء

المبحث الأول

تعامل النبي ﷺ مع سنّة الأخذ بالأسباب

من السنن الربانية التي تعامل معها النبي ﷺ، سنَة الأخذ بالأسباب، والأسباب جمع سبب، وهو كل شيء يتوصل به إلى غيره، وسنّة الأخذ بالأسباب مقررة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فلقد خلق الله هذا الكون بقدرته، وأودعه من القوانين والسنن، ما يضمن استقراره واستمراره، وجعل المسببات مرتبطة بالأسباب بعد إرادته تعالى؛ فأرسى الأرض بالجبال، وأنبت الزرع بالماء.. وغير ذلك.

ولو شاء الله رب العالمين، لجعل كل هذه الأشياء وغيرها ـ بقدرته المطلقة ـ غير محتاجة إلى سبب، ولكن هكذا اقتضت مشيئة الله تعالى وحكمته، الذي يريد أن يوجه خلقه إلى ضرورة مراعاة هذه السنّة، ليستقيم سير الحياة على النحو الذي يريده سبحانه، وإذا كانت سنة الأخذ بالأسباب مبرزة في كون الله تعالى، بصورة واضحة، فإنها كذلك مقررة في كتاب الله تعالى، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السنّة، في كل شؤونهم، الدنيوية، والأخروية سواء قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: الآية ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [المُلك: الآية ١٥].

ولقد أخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى طلب من السيدة مريم أن تباشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعفها، قال تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريَم: الآية ٢٥].

وهكذا يؤكد الله تعالى على ضرورة مباشرة الأسباب في كل الأمور والأحوال.

ورسول الله ﷺ كان أوعى الناس بهذه السنّة الربانية، فكان ـ وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية ـ يأخذ بكل مافي وسعه من أسباب، ولا يترك شيئًا يسير جزافًا، وقد لمسنا ذلك

في مامضى وسنلمس ذلك فيما بقي بإذن الله تعالى.

وكان ـ عليه الصلاة والسلام ـ يوجه أصحابه دائمًا إلى مراعاة هذه السنّة الربانية في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء[١].

● **التوكل على الله والأخذ بالأسباب:**

التوكل على الله ـ تعالى ـ لا يمنع من الأخذ بالأسباب، فالمؤمن يتخذ الأسباب من باب الإيمان بالله، وطاعته فيما يأمر به من اتخاذها، ولكنه لا يجعل الأسباب هي التي تنشىء النتائج فيتوكل عليها.

إن الذي ينشىء النتائج ـ كما ينشىء الأسباب ـ هو قدر الله، ولا علاقة بين السبب والنتيجة في شعور المؤمن.. اتخاذ السبب عبادة بالطاعة، وتحقق النتيجة قدر من الله مستقل عن السبب، لا يقدر عليه إلا الله، وبذلك يتحرر شعور المؤمن من التعبد للأسباب، والتعلق بها، وفي الوقت ذاته هو يستوفيها بقدر طاقته، لينال ثواب طاعة الله في استيفائها[٢].

ولقد قرر النبي ﷺ في أحاديث كثيرة، ضرورة الأخذ بالأسباب، مع التوكل على الله تعالى، كما نبّه ـ عليه السلام ـ على عدم تعارضهما.

يروي أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رجلاً قال: يا رسول الله! أَعْقِلُها وأتوكلُ، أو أُطلِقُها وأتوكلُ ـ وكأنه كان يفهم أن الأخذ بالأسباب ينافي التوكل على الله تعالى ـ فوجهه النبي ﷺ إلى أن مباشرة الأسباب أمر مطلوب، ولا ينافي ـ بحال من الأحوال ـ التوكل على الله تعالى، ما صدقت النية في الأخذ بالأسباب ـ فقال له ﷺ: «اعقلها وتوكل»[٣].

وهذا الحديث من الأحاديث التي تبين أنه لا تعارض بين التوكل والأخذ بالأسباب، بشرط عدم الاعتقاد في الأسباب، والاعتماد عليها ونسيان التوكل على الله، وروى عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا»[٤].

وفي هذا الحديث الشريف حث على التوكل، مع الإشارة إلى أهمية الأخذ بالأسباب، حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها.

ولا بد للأمة الإسلامية أن تدرك أن الأخذ بالأسباب للوصول إلى التمكين أمر لا محيص عنه، وذلك بتقرير الله تعالى حسب سنته التي لا تتخلف، ومن رحمة الله ـ تعالى ـ أنه لم يطلب من المسلمين فوق ما يستطيعونه من الأسباب، ولم يطلب منهم أن يُعدوا العدة التي تكافىء

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية (ص ٢٤٨ـ ٢٥٠).

(٢) في ظلال القرآن (٣/ ١٤٧٦).

(٣) رواه الترمذي (٤/ ٥٧٦) كتاب صفة القيامة، باب (٦٠) ورقمه (٢٥١٧) وحسنه الألباني.

(٤) رواه أحمد في مسنده (١/ ٥٢) ورقمه (٣٧٠) قال الشيخ أحمد شاكر إسناده صحيح.

تجهيز الخصم، ولكنه سبحانه قال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: الآية ٦٠].

فكأنه تعالى يقول لهم: افعلوا أقصى ما تستطيعون، احشدوا أقصى إمكاناتكم، ولو كانت دون إمكانات الخصوم، فالاستطاعة هي الحد الأقصى المطلوب، وما يزيد على ذلك يتكفل الله تعالى به، بقدرته التي لا حدود لها، وذلك لأن فعل أقصى المستطاع هو برهان الإخلاص، وهو الشرط المطلوب لينزل عون الله ونصره(١).

إن النداء اليوم موجه لجماهير الأمة الإسلامية بأن يتجاوزوا مرحلة الوهن والغثاء، إلى مرحلة القوة والبناء، وأن يودّعوا الأحلام والأمنيات، وينهضوا للأخذ بكل الأسباب، التي تعينهم على إقامة دولة الإسلام، وصناعة حضارة الإنسان الموصول برب العالمين.

المبحث الثاني

الهجرة إلى الحبشة

أولاً: الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة:

١ ـ أسباب الهجرة إلى الحبشة:

اشتد البلاء على أصحاب رسول الله ﷺ، وجعل الكفار يحبسونهم ويعذبونهم، بالضرب والجوع والعطش، ورمضاء مكة والنار؛ ليفتنوهم عن دينهم، فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالإيمان، ومنهم من تصلب في دينه، وعصمه الله منهم؛ فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية، لمكانه من الله، ومن عمه أبي طالب، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء، قال لهم: «لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها مَلِكًا لا يظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجًا مما أنتم فيه» فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة، مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة كانت في الإسلام(٢).

وقد ذكر الباحثون أسبابًا عديدة في سبب هجرة المسلمين إلى الحبشة، منها ما ذكرت، ومنها:

- **ظهور الإيمان:**

حيث كثر الداخلون في الإسلام، وظهر الإيمان، وتحدث الناس به، قال الزهري في

---

(١) الإسلام في خندق، مصطفى محمود (ص ٦٤).

(٢) الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون (ص ٢٩٠).

حديثه عن عروة في هجرة الحبشة: فلما كثر المسلمون، وظهر الإيمان، فتُحدث به، ثار المشركون من كفار قريش بمن آمن من قبائلهم، يعذبونهم ويسجنونهم، وأرادوا فتنتهم عن دينهم، فلما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال للذين آمنوا به: «تفرقوا في الأرض»، قالوا: فأين نذهب يا رسول الله؟ قال: «هاهنا»، وأشار إلى أرض الحبشة[١].

● **ومنها؛ الفرار بالدين:**

كان الفرار بالدين خشية الافتتان فيه سببًا مهمًا من أسباب هجرتهم للحبشة؛ قال ابن إسحاق: «فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله ﷺ إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة، وفرارًا إلى الله بدينهم»[٢].

● **ومنها؛ نشر الدعوة خارج مكة:**

قال الأستاذ سيد قطب: «ومن ثمَّ كان يبحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى غير مكة، قاعدة تحمي هذه العقيدة، وتكفل لها الحرية، ويتاح فيها أن تتخلص من هذا التجميد الذي انتهت إليه في مكة، حيث تظفر بحرية الدعوة، وحماية المعتنقين لها من الاضطهاد والفتنة، وهذا في تقديري كان هو السبب الأول والأهم للهجرة، ولقد سبق الاتجاه إلى الحبشة، حيث هاجر إليها كثير من المؤمنين الأوائل، والقول بأنهم هاجروا إليها لمجرد النجاة بأنفسهم، لا يستند إلى قرائن قوية، فلو كان الأمر كذلك لهاجر إذن أقل الناس وجاهة وقوة ومنعة من المسلمين، غير أن الأمر كان على الضد من هذا، فالموالي المستضعفون الذين كان ينصب عليهم معظم الاضطهاد والتعذيب والفتنة لم يهاجروا، إنما هاجر رجال ذوو عصبيات، لهم من عصبيتهم - في بيئة قبلية - ما يعصمهم من الأذى، ويحميهم من الفتنة، وكان عدد القرشيين يؤلف غالبية المهاجرين...»[٣].

ووافق الأستاذ الغضبان الأستاذ سيد فيما ذهب إليه: «وهذه اللفتة العظيمة من «سيد» رحمه الله لها في السيرة ما يعضدها ويساندها، وأهم ما يؤكدها في رأيي هو الوضع العام الذي انتهى إليه أمر مهاجرة الحبشة، فلم نعلم أن رسول الله ﷺ قد بعث في طلب مهاجرة الحبشة حتى مضتْ هجرةُ يثرب، وبدرٌ وأحد والخندق والحديبية، لقد بقيت يثرب معرضة لاجتياح كاسح من قريش خمس سنوات، وكان آخر هذا الهجوم والاجتياح في الخندق، وحين اطمأن رسول الله ﷺ إلى أن المدينة قد أصبحت قاعدة أمينة للمسلمين، وانتهى خطر اجتياحها من المشركين، عندئذٍ بعث في طلب المهاجرين من الحبشة، ولم يعد ثمة ضرورة لهذه القاعدة الاحتياطية، التي كان من الممكن

---

(١) المغازي النبوية، للزُّهْري، تحقيق: سهيل زكار (ص ٩٦).

(٢) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٨).

(٣) في ظلال القرآن (١/ ٢٩).

أن يلجأ إليها رسول الله ﷺ لو سقطت يثرب في يد العدو[١].

ويميل الأستاذ دروزة إلى أن فتح مجال للدعوة في الحبشة سبب من أسباب هجرة الحبشة، حيث يقول: «بل إنه ليخطر بالبال أن يكون من أسباب اختيار الحبشة النصرانية أمل وجود مجال للدعوة فيها، وأن يكون هدف انتداب جعفر متصلاً بهذا الأمل»[٢] وذهب إلى هذا القول الدكتور سليمان بن حمد العودة: ومما يدعم الرأي القائل بكون الدعوة للدين الجديد في أرض الحبشة سببًا وهدفًا من أسباب الهجرة؛ إسلامُ النجاشي، وإسلامُ آخرين من أهل الحبشة، وأمر آخر، فإذا كان ذهاب المهاجرين للحبشة بمشورة النبي ﷺ، وتوجيهه فبقاؤهم في الحبشة إلى فتح خيبر بأمر النبي ﷺ وتوجيهه، وفي صحيح البخاري: فقال جعفر للأشعريين ـ حين وافقوه بالحبشة: «إن رسول الله ﷺ بعثنا هنا، وأمرنا بالإقامة فأقيموا معنا»[٣].

وهذا يعني أنهم ذهبوا لمهمة معينة ـ ولا أشرف من مهمة الدعوة لدين الله ـ وأن هذه المهمة قد انتهت حين طلب المهاجرون[٤].

● **ومنها، البحث عن مكان آمن للمسلمين:**

كان الخطة الأمنية للرسول ﷺ تستهدف الحفاظ على الصفوة المؤمنة، ولذلك رأى الرسول ﷺ أن الحبشة تعتبر مكانًا آمنًا للمسلمين، ريثما يشتد عود الإسلام وتهدأ العاصفة، وقد وجد المهاجرون في أرض الحبشة ما أمنهم وطمأنهم، وفي ذلك تقول أم سلمة رضي الله عنها: «لما نزلنا أرض الحبشة جاوَرْنا بها خيرَ جار النجاشي، أمِنَّا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نُؤْذَى...»[٥].

٢ ـ لماذا اختار النبي ﷺ الحبشة؟

هناك عدة أسباب تساعد الباحث للإجابة عن: لماذا اختار النبي ﷺ الحبشة؟ منها:

أ ـ النجاشي العادل.

ب ـ النجاشي الصالح.

فقد ورد عن النبي ﷺ ثناؤه على ملك الحبشة بقوله: «وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي، لا يُظلم أحد بأرضه» وكان يُثنَى عليه مع ذلك صلاح[٦]. ويظهر هذا الصلاح في

---

(١) المنهج الحركي للسيرة (١/ ٦٧، ٦٨).

(٢) سيرة الرسول ﷺ (١/ ٢٦٥) عن الشامي (ص ١١١).

(٣) الصحيح مع الفتح (٦/ ٢٣٧).

(٤) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام، د. سلمان العودة (ص ٣٤).

(٥) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق همام أبو صعليك (١/ ٤١٣).

(٦) انظر: تاريخ الأمم والملوك للطبري (٢/ ٣٢٨)، يُثنَى عليه: أي يشيع عنه.

حمايته للمسلمين، وتأثره بالقرآن الكريم عندما سمعه من جعفر رضي الله عنه، وكان معتقده في عيسى عليه السلام صحيحًا.

جـ ـ الحبشة متجر قريش:

والحبشة تعتبر من مراكز التجارة في الجزيرة، فربما عرفها بعض المسلمين عندما ذهبوا إليها في التجارة، أو ذكرها لهم من ذهب إليها قبلهم، وقد ذكر الطبري في معرض ذكره لأسباب الهجرة للحبشة: «وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رَفاغًا[١] من الرزق وأمنًا، ومتجرًا حسنًا»[٢].

د ـ الحبشة البلد الآمن:

فلم يكن في خارج الجزيرة بلد أكثر أمنًا من بلاد الحبشة، ومن المعلوم بُعْدُ الحبشة عن سطوة قريش من جانب، وهي لا تدين لقريش بالاتباع كغيرها[٣]، وفي حديث ابن إسحاق عن أسباب اتخاذ الحبشة مكانًا للهجرة أنها: أرض صدق، وأن بها ملكًا لا يظلم عنده أحد[٤]، فهي أرض صدق، وملكها عادل، وتلك من أهم سمات البلد الآمن[٥].

هـ ـ محبة الرسول ﷺ للحبشة ومعرفته بها:

ففي حديث الزهري أن الحبشة كانت أحب الأرض إلى رسول الله ﷺ أن يهاجر إليها[٦]، ولعل تلك المحبة لها أسباب منها:

- حكم النجاشي العادل.
- التزام الأحباش بالنصرانية، وهي أقرب إلى الإسلام من الوثنية.
- معرفة الرسول بأخبار الحبشة من خلال حاضنته أم أيمن رضي الله عنها، وأم أيمن هذه ثبت في صحيح مسلم وغيره، أنها كانت حبشية[٧]، كما أن النبي ﷺ كان خبيرًا بطبائع وأحوال الدول التي في زمانه.

٣ ـ وقت خروج المهاجرين، وسرية الخروج والوصول إلى الحبشة:

غادر أصحاب رسول الله ﷺ مكة، في رجب من السنة الخامسة للبعثة، وكانوا عشرة

---

(١) رَفاغًا: الرَّفْغُ والرَّفاغة: سَعة العيش والخصب. (لسان العرب ـ رفغ).
(٢) مغازي رسول الله ﷺ لعروة بن الزبير (ص ١٠٤).
(٣) انظر: هجرة الرسول وأصحابه في القرآن والسنة، أحمد الجمل (ص ٩٧).
(٤) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٩٧).
(٥) الهجرة الأولى في الإسلام (ص ٤٦).
(٦) مغازي الزهري (ص ٩٦).
(٧) صحيح مسلم (٣/ ١٣٩٢)، تهذيب الأسماء واللغات للنووي (٣/ ٣٥٧).

رجال، وأربع نسوة، وقيل: خمس نسوة، وحاولت قريش أن تدركهم لتردهم إلى مكة، وخرجوا في أثرهم حتى وصلوا البحر، ولكن المسلمين كانوا قد أبحروا متوجهين إلى الحبشة[١].

وعند التأمل في فقه المرويات يتبين لنا سرية المهاجرين، ففي رواية الواقدي: «فخرجوا متسللين سرًّا»[٢] وعنه الطبري[٣]، وممن ذكر السرية في الهجرة، ابن سيد الناس[٤]، وابن القيم[٥]، والزرقاني[٦]، ولما وصل المسلمون إلى أرض الحبشة أكرم النجاشي مثواهم، وأحسن لقاءهم. ووجدوا عنده من الطمأنينة بالأمن مالم يجدوه في وطنهم وأهليهم.

إن المتأمل في أسماء الصحابة الذين هاجروا[٧] لا يجد فيهم أحدًا من الموالي الذين نالهم من أذى قريش وتعذيبها أشد من غيرهم، كبلال، وخباب، وعمار ﷺ، بل نجد غالبيتهم من ذوي النسب والمكانة في قريش، ويمثلون عددًا من القبائل، صحيح أن الأذى شمل ذوي النسب والمكانة، كما طال غيرهم، ولكنه كان على الموالي أشد في بيئة تقيم وزنًا للقبيلة، وترعى النسب، وبالتالي فلو كان الفرار من الأذى وحده، هو السبب في الهجرة، لكان هؤلاء الموالي المعذبون أحق بالهجرة من غيرهم، ويؤيد هذا أن ابن إسحاق وغيره، ذكر عدوان المشركين على المستضعفين، ولم يذكر هجرتهم للحبشة[٨].

ويصل الباحث إلى حقيقة مهمة ألا وهي ثَمَّة أسبابًا أخرى، تدفع للهجرة غير الأذى؛ اختار لها النبي ﷺ نوعية من أصحابه، تمثل عددًا من القبائل، وقد يكون لذلك أثر في حمايتهم، لو وصلت قريش إلى إقناع أهل الحبشة بإرجاعهم من جانب، وتهز هجرتهم قبائل قريش كلها أو معظمهم من جانب آخر، فمكة ضاقت بأبنائها، ولم يجدوا بدًّا من الخروج عنها، بحثًا عن الأمن في بلد آخر، ومن جانب ثالث، يرحل هؤلاء المهاجرون بدين الله لينشروه في الآفاق، وقد تكون محلاً أصوب وأبرك للدعوة إلى الله، فتتفتح عقول وقلوب حين يستغلق سواها[٩].

عاش المسلمون ثلاثة أشهر من بدء الهجرة، وحدث تغير كبير على حياة المسلمين في

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم، أحزمي سامعون (ص ٢٩٠، ٢٩١).
(٢) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٤).
(٣) تاريخ الطبري (٢/ ٣٢٩).
(٤) عيون الأثر (١/ ١١٦).
(٥) زاد المعاد (٣/ ٢٣).
(٦) شرح المواهب (١/ ٢٧١).
(٧) ارجع إليهم في: البداية والنهاية (٣/ ٩٦- ٩٧)، سيرة ابن هشام (١/ ٣٤٤- ٣٥٢).
(٨) الأنساب للبلاذُرِيّ (١/ ١٥٦- ١٩٨)، ابن هشام (١/ ٣٩٢- ٣٩٦).
(٩) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ٣٧).

مكة، وظروفٌ نشأت لم تكن موجودة من قبل، بعثت في المسلمين الأمل في إمكان نشر الدعوة في مكة، حيث أسلم في تلك الفترة حمزة بن عبد المطلب، عم رسول الله ﷺ عصبية لابن أخيه، ثم شرح الله صدره للإسلام، فثبت عليه، وكان حمزة أعز فتيان قريش، وأشدهم شكيمة، فلما دخل في الإسلام عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عز وامتنع، وأن عمه سيمنعه ويحميه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه(١).

وبعد إسلام حمزة ـ رضي الله عنه ـ أسلم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وكان عمر ذا شكيمة لا يرام، فلما أسلم امتنع به أصحاب رسول الله ﷺ وبحمزة حتى عازَّوا قريشًا(٢).

كان إسلام الرجلين العظيمين بعد خروج المسلمين إلى الحبشة، فكان إسلامُهما عزةً للمسلمين، وقهرًا للمشركين وتشجيعًا لأصحاب رسول الله ﷺ على المجاهرة بعقيدتهم.

قال ابن مسعود: «إن إسلام عمر كان فتحًا، وإن هجرته كانت نصرًا، وإن إمارته كانت رحمة، ولقد كنا ما نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشًا حتى صلى عند الكعبة، وصلينا معه»(٣).

وعن ابن عمر قال: «لما أسلم عمر قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن معْمر الجُمَحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله: وغدوت معه أتبع أثره، وأنظر ماذا يفعل؟ حتى جاءه فقال له: أعلمت يا جميل أني أسلمت ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ماراجعه حتى قام يجر رداءه وتبعه عمر، واتبعت أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش وهم في أنديتهم حول الكعبة ـ ألا إن ابن الخطاب قد صبأ(٤)، قال: يقول عمر من خلفه: كذب ولكني أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه، حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطَلِح(٥) فقعد، وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أن لو كنا ثلاثمائة لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا(٦)، «لقد أصبح المسلمون إذًا في وضع غير الذي كانوا فيه قبل الهجرة إلى الحبشة، فقد امتنعوا بحمزة وعمر ـ رضي الله عنهما ـ واستطاعوا أن يصلّوا عند الكعبة بعد أن كانوا لا يقدرون على ذلك، وخرجوا من بيت الأرقم بن أبي الأرقم مجاهرين، حتى دخلوا المسجد، وكَفَّت قريش عن إيذائهم بالصورة الوحشية التي كانت تعذبهم بها قبل ذلك، فالوضع قد تغير بالنسبة للمسلمين، والظروف التي كانوا يعيشون فيها قبل

---

(١) مختصر سيرة الرسول ﷺ، محمد بن عبد الوهاب (ص ٩٠).

(٢) السيرة النبوية (١/ ٢٩٤) وعازُّوا قريشًا: أي غلبوهم.

(٣) السيرة النبوية لابن هشام (١/ ٣٦٥).

(٤) صبأ: خرج من دين إلى آخر: القاموس المحيط، باب الهمزة (١/ ٢٠).

(٥) طَلِح: أعيا.

(٦) سبل الهدى والرشاد للصالحي (٢/ ٤٩٨ـ ٤٩٩).

الهجرة، قد تحولت إلى أحسن، فهل ترى هذا يخفى على أحد؟ وهل تظن أن هذه التغييرات التي جرت على حياة المسلمين في مكة، لم تصل إلى أرض الحبشة، ولو عن طريق البحارة الذين كانوا يمرون بجدة؟

لا بد أن كل ذلك قد وصلهم، ولا شك أن هؤلاء الغرباء قد فرحوا بذلك كثيرًا، ولا يستغرب أحد بعد ذلك أن يكون الحنين إلى الوطن ـ وهو فطرة فطر الله عليها جميع المخلوقات ـ قد عاودهم، ورغبت نفوسهم في العودة إلى حيث الوطن العزيز، مكة أم القرى، وإلى حيث يوجد الأهل والعشيرة، فعادوا إلى مكة في ظل الظروف الجديدة والمشجعة، وتحت إلحاح النفس وحنينها إلى حرم الله وبيته العتيق»[(١)].

لقد رجع المهاجرون إلى مكة، بسبب ما علموا من إسلام حمزة وعمر، واعتقادهم أن إسلام هذين الصحابيين الجليلين سيعتز به المسلمون، وتقوى شوكتهم.

ولكن قريشًا واجهت إسلام حمزة وعمر ـ ﷺ ـ بتدبيرات جديدة يتجلى فيها المكر والدهاء من ناحية، والقسوة والعنف من ناحية أخرى، فزادت في أسلحة الإرهاب، التي تستعملها ضد النبي ﷺ، وأصحابه ـ ﷺ ـ سلاحًا قاطعًا، وهو سلاح المقاطعة الاقتصادية ـ وقد تحدثت عنه ـ وكان من جراء ذلك الموقف العنيف، أن رجع المسلمون إلى الحبشة مرة ثانية، وانضم إليهم عدد كبير ممن لم يهاجروا قبل ذلك[(٢)].

ثانيًا: هجرة المسلمين الثانية إلى الحبشة:

قال ابن سعد: قالوا: لما قدم أصحاب النبي ﷺ مكة من الهجرة الأولى، اشتد عليهم قومهم، وسطت بهم عشائرهم، ولقوا منهم أذى شديدًا، فأذن لهم رسول الله ﷺ في الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية، فكانت خرجتهم الثانية أعظمها مشقة، ولقوا من قريش تعنيفًا شديدًا، ونالوهم بالأذى واشتد عليهم ما بلغهم عن النجاشي من حسن جواره لهم، فقال عثمان بن عفان: يا رسول الله فهجرتنا الأولى وهذه الآخرة، ولست معنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «أنتم مهاجرون إلى الله تعالى وإليَّ لكم هاتان الهجرتان جميعًا» قال عثمان: فحسبنا يا رسول الله[(٣)].

وهاجر معهم كثيرون غيرهم أكثر منهم، وعدتهم ـ كما قال ابن إسحاق وغيره ـ ثلاثة وثمانون رجلاً، إن كان عمار بن ياسر فيهم، واثنان وثمانون رجلاً إن لم يكن فيهم، قال

---

(١) تأملات في سيرة الرسول ﷺ، لمحمد سيد الوكيل (ص ٥٩)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٢).

(٢) انظر: القول المبين في سيرة سيد المرسلين، د. محمد النجار (ص ١١١)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٢).

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٠٧) (ط. بيروت). الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٣).

السهيلي: وهو الأصح عند أهل السير كالواقدي، وابن عقبة وغيرهما[١]، وثماني عشرة امرأة: إحدى عشرة قرشيات، وسبع غير قرشيات، وذلك عدا أبنائهم الذين خرجوا معهم صغارًا، ثم الذين ولدوا لهم فيها[٢].

١ ـ سعي قريش لدى النجاشي في رد المهاجرين:

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد أمنوا، واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها دارًا واستقرارًا، وحسن جوار من النجاشي، وعبدوا الله لا يؤذيهم أحد، ائتمروا فيما بينهم، أن يبعثوا وفدًا للنجاشي لإحضار من عنده من المسلمين إلى مكة، بعد أن يوقعوا بينهم وبين ملك الحبشة، إلا أن هذا الوفد خدم الإسلام والمسلمين من حيث لا يدري، فقد أسفرت مكيدته عند النجاشي عن حوار هادف دار بين أحد المهاجرين ـ وهو جعفر بن أبي طالب ـ وبين ملك الحبشة، أسفر هذا الحوار عن إسلام النجاشي، وتأمين المهاجرين المسلمين عنده[٣]، فعن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج النبي ﷺ قالت: لما نزلنا أرض الحبشة جاوَرْنا بها خيرَ جار (النجاشي)، أَمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى، لا نُؤذَى، ولا نسمع شيئًا نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشًا، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين جلدين[٤]، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، وكان من أعجب مايأتيه منها إليه الأدم[٥]، فجمعوا له أدمًا كثيرًا، ولم يتركوا من بَطارِقته[٦] بطريقًا إلا أهدَوا له هدية، ثم بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزومي، وعمرو بن العاص بن وائل السهمي، وأمروهما أمرهم، وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هديته، قبل أن تكلموا النجاشي فيهم، ثم قدموا للنجاشي هداياه، ثم سلوه أن يُسْلِمَهم إليكم قبل أن يكلمهم، قالت: فخرجا فقدما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار وخير جار. فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته، قبل أن يكلما النجاشي، ثم قالا لكل بطريق منهم: إنه صَبَا[٧] إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارَقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدَع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بَعَثَنا إلى الملك فيهم أشرافُ قومهم، لنردهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يُسْلِمَهم إلينا، ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً[٨]، وأعلم بما عابوا

---

(١) انظر: الروض الأنف للسهيلي (٣/ ٢٢٨).
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٣).
(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٤٠٤).
(٤) الجلد: القوة والشدة.
(٥) الأدم: جمع أديم وهو الجلد المدبوغ.
(٦) جمع بطريق: وهو الحاذق بالحرب وأمورها بلغة الروم.
(٧) صَبَا: لعل المعنى حَنَّ ومال.
(٨) أعلى بهم عينًا: قال السهيلي: أي أبصر بهم، أي أعينهم وأبصارهم فوق عين غيرهم في أمرهم: الروض الأنف (٢/ ٩٢).

عليهم، فقالوا لهما: نعم. ثم إنهما قرَّبا هداياهم إلى النجاشي فقبلها منهما، ثم كلماه فقالا له: أيها الملك إنه قد صَبَا إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينك، وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بَعَثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم، لتردهم إليهم، فهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص من أن يسمع النجاشيُّ كلامهم، فقالت بطارقته حوله: صدقوا أيها الملك، قومُهم أعلى بهم عينًا، وأعلم بما عابوا عليهم، فأسلمهم إليهما فليردَّاهم إلى بلادهم وقومهم.

قالت: فغضب النجاشيُّ، ثم قال: لا هَيْمُ[١] الله إذًا لا أسلمهم إليهما ولا أُكادُ[٢]، قومًا جاوروني ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أَدْعُوهم فأسألهم ما يقول هذان في أمرهم؟ فإن كانوا كما يقولون أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منها، وأحسنت جوارهم، ماجاوروني[٣].

٢ ـ حوار بين جعفر والنجاشي:

ثم أرسل (النجاشي) إلى أصحاب رسول الله ﷺ، فدعاهم، فلما جاءهم رسولُه اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض، ما تقولون للرجل إذا جئتموه؟ قالوا: نقول، والله ما علمنا وما أَمَرَنا نبيُّنا ﷺ، كائنًا في ذلك ماهو كائن؛ فلما جاءوه، وقد دعا النجاشيُّ أساقفته[٤]، فنشروا مصاحفهم[٥] حوله، سألهم فقال: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا ديني، ولا دين أحد من هذه الأمم؟

قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه فقال له: أيها الملك، كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، يأكل القوي منا الضعيف، فكنَّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً نعرف نسبه وصدقه، وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

---

(١) والمعنى: لا والله.

(٢) لا أُكادُ: أي: ولا أخشى أن يلحقني فيه كيد. وفي (سيرة ابن هشام): ولا يُكاد قومٌ جاوروني.

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٠، ٢٩١ ورقمه ٢٢٤٩٨) إسناده صحيح أوْ حَسن.

(٤) أساقفته: جمع الأسقف وهو العالم والرئيس من علماء النصارى.

(٥) أي أناجيلهم وكانوا يسمونها مصاحف.

قالت: فعدد عليه أمور الإسلام، فصدقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به. فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حَرَّم علينا، وأحللنا ما أحل لنا، فعدا علينا قومُنا، فعذبونا وفتنونا عن ديننا، ليَرُدُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا، وشقُّوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلدك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نظلم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه عليَّ؟

فقرأ عليه صدرًا من ﴿كٓهيعٓصٓ﴾ [مريَم: الآية ١] ، قالت: فبكى والله النجاشي، حتى أَخْضَلَ[١] لحيته، وبكت أساقفته، حتى أَخضَلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم.

ثم قال النجاشي: إن هذا والذي جاء به موسى، ليخرج من مشكاة واحدة، انطَلِقا فوالله لا أُسلِمُهم إليكم أبدًا ولا أُكادُ.

٣ ـ محاولة أخرى للدس بين المهاجرين والنجاشي:

قالت أم سلمة: فلما خرجا (عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة) من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لأنبئنَّه غدًا عيبهم عنده، ثم أستأصل به خضراءهم[٢]، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة ـ وكان أتقى الرجلين فينا ـ لا تفعل، فإن لهم أرحامًا، وإن كانوا قد خالفونا.

قال: والله لأخبرنه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبدٌ، قالت: ثم غدا عليه الغدَ، فقال له: أيها الملك إنهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيمًا، فأرسل إليهم فاسألهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم يسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها، فاجتمع القوم، فقال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول، والله فيه، ماقال الله، وماجاء به نبينا كائنًا في ذلك ماهو كائن، فلما دخلوا عليه، قال لهم: ما تقولون في عيسى ابن مريم؟

فقال له جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاء به نبينا: هو عبد الله ورسوله وروحه، وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء[٣] البَتُول[٤].

قالت: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عودًا، ثم قال: ما عدا عيسى ابن

---

(١) ابتلت بالدموع: يقال خضل وأخضل إذا ندى، النهاية (٣/ ٤٣).

(٢) أستأصل به خضراءهم: أي أقضي به على دهائهم وسوادهم؛ الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٧).

(٣) العذراء: الجارية التي لم يمسها رجل وهي البكر.

(٤) يقال امرأة بتول: منقطعة عن الرجال لاشهوة لها فيهم.

مريم ما قلت ـ هذا العود، فتناخرت[١] بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم سُيُوم بأرضي (والسُيوم الآمنون) من سبكم غُرِّم، ثم من سبكم غُرِّم، فما أُحبُّ أن لي دَبرًا ذهبًا، وإني آذيت رجلاً منكم ـ والدبر بلسان الحبشة الجبل ـ ردوا عليهما هداياهما، فلا حاجة لنا بها، فوالله ما أخذ الله مني الرَّشوة حين رد عليَّ مُلكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فِيَّ فأطيعهم فيه. قالت: فخرجا من عنده مقبوحين مردودًا عليهما ما جاءا به، وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار[٢].

٤ ـ إسلام النجاشي:

وقد أسلم النجاشي، وصدق بنبوة النبي ﷺ، وإن كان قد أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات على الباطل، وحرصهم على الضلال، وجمودهم على العقائد المنحرفة، وإن صادمت العقل والنقل[٣]، فعن أبي هريرة رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ نعى النجاشي في اليوم الذي مات فيه، وخرج بهم إلى المصلى، فصف بهم، وكبر عليه أربع تكبيرات»[٤]، وعن جابر رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ حين مات النجاشي: «مات اليوم رجل صالح فقوموا فصلوا على أخيكم أصحمة»[٥] رضي الله عنه وأرضاه، وكانت وفاته ـ رحمه الله ـ سنة تسع عند الأكثر وقيل: سنة ثمان قبل فتح مكة[٦].

● دروس وعبر وفوائد:

١ ـ إن ثبات المؤمنين على عقيدتهم، بعد أن يُنْزِلَ بهم الأشرار والضالون أنواع العذاب والاضطهاد، دليل على صدق إيمانهم، وإخلاصهم في معتقداتهم، وسمو نفوسهم وأرواحهم، بحيث يرون ماهم عليه من راحة الضمير، واطمئنان النفس والعقل، وما يأملونه من رضا الله جل شأنه، أعظم بكثير مما ينال أجسادهم من تعذيب وحرمان واضطهاد، لأن السيطرة في المؤمنين الصادقين، والدعاة المخلصين، تكون دائمًا وأبدًا لأرواحهم، لا لأجسادهم، وهم يسرعون إلى تلبية مطالب أرواحهم، من حيث لا يبالون بما تتطلبه أجسامهم من راحة وشبع ولذة، بهذا تنتصر الدعوات، وبهذا تتحرّر الجماهير من الظلمات والجهالات[٧].

---

(١) فتناخرت: أي تكلمت، وكأنه كلام مع غضب ونفور.

(٢) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٠٢، ٢٠٣) ورجاله رجال الصحيح، وحسَّن إسناده محققًا طبعة مؤسسة الرسالة، ورقمه (١٧٤٠).

(٣) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٠٩).

(٤) البخاري، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة [٥/ ٦٤ ورقمه (١٣٣٣)].

(٥) البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب موت النجاشي، حديث رقم (٣٨٧٧).

(٦) أسد الغابة (١/ ٩٩)، الإصابة (١/ ١٠٩).

(٧) السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعي (ص ٥٧).

٢ - مما يتبادر إلى الذهن من هذه الهجرة العظيمة، هو شفقة هذا الرسول الكريم ﷺ على أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه الشديد للبحث عما فيه أمنهم وراحتهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى الملك العادل، الذي لا يظلم أحد عنده، فكان الأمر كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فأمنوا في دينهم، ونزلوا عنده في خير منزل[١]، فالرسول ﷺ هو الذي وجَّه الأنظار إلى الحبشة، وهو الذي اختار المكان الآمن لجماعته ودعوته؛ كي يحميها من الإبادة، وهذه تربية نبوية لقيادات المسلمين، في كل عصر، أن تخطط بحكمة، وبعد نظر لحماية الدعوة والدعاة، وتبحث عن الأرض الآمنة التي تكون عاصمة احتياطية للدعوة، ومركزًا من مراكز انطلاقها، فيما لو تعرض المركز الرئيسي للخطر، أو وقع احتمال اجتياحه، فجنود الدعوة هم الثروة الحقيقية، وهم الذين تنصب الجهود كلها لحفظهم وحمايتهم، دون أن يتم أي تفريط بأرواحهم وأمنهم، ومسلم واحد يعادل ما على الأرض من بشر خارجين عن دين الله وتوحيده[٢].

٣ - كانت الأهداف من هجرة الحبشة متعددة، ولذلك حرص النبي ﷺ على اختيار نوعيات معينة، لتحقيق هذه الأهداف، كشرح قضية الإسلام، وموقف قريش منه، وإقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين، على نحو ما تفعله الدول الحديثة من تحرك سياسي، يشرح قضاياها، وكسب الرأي العام إلى جوارها[٣]، وفتح أرض جديدة للدعوة، فلذلك هاجر سادات الصحابة في بداية الأمر، ثم لحق بهم أكثر الصحب، وأُوكل الأمر إلى جعفر رضي الله عنه [٤].

٤ - إن وجود ابن عم رسول الله ﷺ جعفر، وصهره عثمان، وابنته رقية رضي الله عنهم جميعًا في مقدمة المهاجرين، له دلالة عميقة، تشير إلى أن الأخطار لا بد أن يتجشمها المقربون إلى القائد، وأهله، ورحمه، أما أن يكون خواص القائد في منأى عن الخطر، ويُدْفَع إليه الأبعدون غير ذوي المكانة، فهو منهج بعيد عن نهج النبي ﷺ[٥].

٥ - مشروعية الخروج عن الوطن، وإن كان الوطن مكة، على فضلها، إذ كان الخروج فرارًا بالدين، وإن لم يكن إلى إسلام، فإن الحبشة كانوا نصارى، يعبدون المسيح، ولا يقولون: هو عبد الله، وقد تبين ذلك في هذا الحديث - يعني حديث أم سلمة المتقدم - وسموا بهذه مهاجرين، وهم أصحاب الهجرتين الذين أثنى عليهم بالسبق فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣١٢).
(٢) انظر: التربية القيادية للغضبان (١/ ٣٣٣).
(٣) أضواء على الهجرة، توفيق محمد سبع (ص ٤٢٧).
(٤) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٣٣).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٣٣٣).

[التّوبَة: الآية ١٠٠] ، وجاء في التفسير: إنهم هم الذين شهدوا بيعة الرضوان[١]، فانظر كيف أثنى الله عليهم بهذه الهجرة، وهم قد خرجوا من بيت الله الحرام، إلى دار الكفر، لما كان فعلهم ذلك احتياطًا على دينهم، ورجاء أن يخلى بينهم وبين عبادة ربهم، يذكرونه آمنين مطمئنين، وهذا حكم مستمر متى غلب المنكر في بلد، وأوذي على الحق مؤمن، ورأى الباطل قاهرًا للحق، ورجا أن يكون في بلد آخر ـ أي بلد كان ـ خلي بينه وبين دينه، ويظهر فيه عبادة ربه، فإن الخروج على هذا الوجه حق على المؤمن، هذه الهجرة التي لا تنقطع إلى القيامة، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[٢] [البَقَرَة: الآية ١١٥] .

٦ ـ يجوز للمسلمين أن يدخلوا في حماية غير المسلمين، إذا دعت الحاجة إلى ذلك، سواء كان المجير من أهل الكتاب، كالنجاشي إذ كان نصرانيًّا عندئذٍ، ولكنه أسلم بعد ذلك، أوكان مشركًا كأولئك الذين عاد المسلمون إلى مكة في حمايتهم عندما رجعوا من الحبشة، وكأبي طالب عم رسول الله ﷺ، وكالمطعم بن عدي الذي دخل الرسول ﷺ مكة في حمايته عندما رجع من الطائف[٣].

وهذا مشروط ـ بحكم البداهة ـ بأن لا تستلزم مثل هذه الحماية إضرارًا بالدعوة الإسلامية، أو تغييرا لبعض أحكام الدين، أو سكوتًا على اقتراف بعض المحرمات، وإلا لم يجز للمسلم الدخول فيها؛ ودليل ذلك ما كان من موقفه حينما طلب منه أبو طالب أن يبقي على نفسه، ولا يحمله ما لا يطيق فلا يتحدث عن آلهة المشركين بسوء، فقد وطن نفسه إذ ذاك على الخروج من حماية عمه، وأبَى أن يسكت عن شيء مما يجب عليه بيانه وإيضاحه[٤].

٧ ـ إن اختيار الرسول ﷺ الهجرة إلى الحبشة، يشير إلى نقطة استراتيجية هامة، تمثلت في معرفة الرسول ﷺ بما حوله من الدول والممالك، فكان يعلم طيبها من خبيثها، وعادلها من ظالمها، الأمر الذي ساعد على اختيار دار آمنة لهجرة أصحابه، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال قائد الدعوة، الذي لابد أن يكون ملمًّا بما يجري حوله، مطلعًا على أحوال وأوضاع الأمم والحكومات[٥].

٨ ـ يظهر الحس الأمني عند الرعيل الأول، في هجرتهم الأولى، وكيفية الخروج، فيتمثل في كونه تم تسللاً وخفية، حتى لا تفطن له قريش فتحبطه، كما أنه تم على نطاق ضيق، لم

---

(١) تفسير الطبري (٦/١١)، تفسير ابن كثير (٢/ ٣٣١).

(٢) الروض الأنف للسهيلي (٢/ ٩٢)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣١٢).

(٣) الهجرة في القرآن الكريم (ص ١٣١٦).

(٤) فقه السيرة للبوطي (ص ٢٦)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣١٧).

(٥) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠١).

يزد على ستة عشر فردًا، فهذا العدد لا يلفت النظر في حالة تسللهم، فردًا أو فردين، وفي الوقت ذاته يساعد على السير بسرعة، وهذا ما يتطلبه الموقف؛ فالركب يتوقع المطاردة، والملاحقة في أي لحظة، ولعل السرية المضروبة على هذه الهجرة، فوتت على قريش العلم بها، في حينها، فلم تعلم بها إلا مؤخرًا، فقامت في إثرهم لتلحق بهم، لكنها أخفقت في ذلك، فعندما وصلت البحر لم تجد أحدًا، وهذا مما يؤكد على أن الحذر هو مما يجب أن يلتزمه المؤمن، في تحركاته الدعوية، فلا تكون التحركات كلها مكشوفة، ومعلومة للعدو، بحيث يترتب عليها الإضرار به وبالدعوة[١].

٩ - لم ترض قريش بخروج المسلمين إلى الحبشة، وشعرت بالخطر الذي يهدد مصالحها في المستقبل، فربما تكبر الجالية هناك، وتصبح قوة خطرة، ولذلك جد المشركون وشرعوا في الأخذ بالأسباب لإعادة المهاجرين، وبدأت قريش تلاحق المهاجرين؛ لكي تنزع هذا الموقع الجديد منهم، في تخطيط محكم ذكي؛ فالهدايا إلى النجاشي، والهدايا إلى بطارقته، ووضعت الخطة داخل مكة، وكيف توزع الهدايا، وما نوعية الكلام الذي يرافق الهدايا، وصفات السفراء، فعمرو من أصدقاء النجاشي ومعروف بالدهاء.. وما أحوجنا إلى ألا نستصغر عدونا، وألا ننام عن مخططاته، وأن نعطيه حجمه الحقيقي، وندرس تحركاته، لنستعد لمواجهة مخططاته الماكرة[٢].

١٠ - نفذت خطة قريش بحذافيرها كاملة، ولكنها فشلت، لأن شخصية النجاشي - التي تم جوارها - رفضت أن تسلم المسلمين قبل السماع منهم؛ وبذلك أتاحت الفرصة للمسلمين إلى أن يعرضوا قضيتهم العادلة ودينهم القويم.

١١ - اجتمع الصحابة حين جاءهم رسول النجاشي، وطلب منهم الحضور، وتدارسوا الموقف، وهكذا كان أمر المسلمين شورى بينهم، وكل أمر يتم عن طريق الشورى هو أدعى إلى نجاحه، لأنه يضم خلاصة عقول كثيرة، وتبدو مظاهر السمو التربوي في كون الصحابة لم يختلفوا، بل أجمعوا على رأي واحد، ألا وهو أن يعرض الإسلام كما جاء به رسول الله ﷺ، كائنًا في ذلك ما هو كائن، وعزموا على عرض الإسلام بعزة، وإن كان في ذلك هلاكهم[٣].

١٢ - كان وعي القيادة النبوية على مستوى الأحداث، ولذلك وضع جعفر بن أبي طالب على إمارة المسلمين في الهجرة، وتم اختياره من قبل المسلمين المهاجرين ليتحدث باسمهم بين يدي الملك، وليتمكن من مواجهة داهية العرب عمرو بن العاص، وقد امتازت شخصية

---

(١) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠١).

(٢) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١٧).

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٢/ ٩٢).

جعفر بعدة أمور، جعلتها تتقدم لسد هذه الثغرة العظيمة منها:

* جعفر بن أبي طالب من ألصق الناس برسول الله ﷺ، فقد عاش معه في بيت واحد، فهو أخبر الناس بقائد الدعوة، وسيد الأمة من بين كل المهاجرين إلى الحبشة.
* وهذا الموقف بين يدي النجاشي يحتاج إلى بلاغة وفصاحة، وبنو هاشم قمة قريش نسبًا وفضلاً، وجعفر في الذؤابة من بني هاشم، والله تعالى قد اختار هاشمًا من كنانة، واختار نبيه من بني هاشم؛ فهم أفصح الناس لسانًا وأوسطهم نسبًا.
* وهو ابن عم رسول الله ﷺ، وهذا يجعل النجاشي أكثر اطمئنانًا، وثقة بما يعرض عن ابن عمه[(١)].
* خلق جعفر المقتبس من مشكاة النبوة، وجمال خلقه المنحدر من أصلاب بني هاشم، فقد قال رسول الله ﷺ لجعفر: «أشبهت خلقي وخلقي»[(٢)]، فالسفير بين يدي النجاشي، كان قدوة لسفراء المسلمين على مر الزمان، وكر العصور، فقد اتصف بسمات السفراء المسلمين، كالإسلام والانتماء إليه، الفصاحة، العلم، حسن الخلق، الصبر، الشجاعة، الحكمة، سعة الحيلة، المظهر الجذاب[(٣)].

١٣ ـ كان عمرو بن العاص رضي الله عنه، وهو يمثل في تلك المرحلة عداوة الله ورسوله ﷺ، على مستوى كبير من الذكاء، والدهاء، والمكر، وكان قبل دخول جعفر وحديثه قد شحن كل ما لديه من حجة، وألقى بها بين يدي النجاشي من خلال النقاط الآتية:

* تحدث عن بلبلة جو مكة، وفساد ذات بينها من خلال دعوة محمد ﷺ، وهو سفير مكة، وممثلها بين يدي النجاشي، فكلامه مصدق لا يعتريه الشك، وهو عند النجاشي موضع ثقة.
* تحدث عن خطورة أتْبَاع محمد ﷺ، وربما سيزلزلون الأرض تحت قدمي النجاشي، كما أفسدوا جو مكة، ولولا حب قريش للنجاشي وصداقتها معه، ما تعنوا هذا العناء لنصحه، «وأنت لنا عَيْبَة صدق، تأتي إلى عشيرتنا بالمعروف، ويأمن تاجرنا عندك» فلا أقل من رد المعروف بمثله، ولا أقل من وفاء حسن الجوار والعلاقة بين مكة والحبشة من تحذيره من هذه الفتنة المخيفة.
* وأخطر مافي أمرهم، هو خروجهم على عقيدة النجاشي، وكفرهم بها «فهم لا يشهدون أن عيسى ابن مريم إله، فليسوا على دين قومهم، وليسوا على دينك» فهم مبتدعة دعاة فتنة.
* ودليل استصغارهم لشأن الملك، واستخفافهم به، أن كل الناس يسجدون للملك، لكنهم لا يفعلون ذلك، فكيف يتم إيواؤهم عندك، وهو عودة إلى إثارة الرعب في نفسه، من عدم

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٣٥).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٣٣٦).
(٣) انظر: سفراء النبي ﷺ، لمحمود شيت خطاب (٢/ ٢٥٢ـ ٣١٧).

احترام الدعاة له، حتى يستخفون بملكه، ولا يسجدون له، فكان على جعفر أن يفند كل الاتهامات الباطلة، التي ألصقها سفير قريش بالمهاجرين[١].

١٤ ـ كان رد جعفر على أسئلة النجاشي في غاية الذكاء، وقمة المهارة السياسية، والإعلامية، والدعوية، والعقدية؛ فقام بالتالي:

* عدَّد عيوب الجاهلية، وعرضها بصورة تنفر السامع، وقصد بذلك تشويه صورة قريش في عين الملك، وركز على الصفات الذميمة، التي لا تنتزع إلا بنبوة.

*عرض شخصية الرسول ﷺ، في هذا المجتمع الآسن المملوءة بالرذائل، وكيف كان بعيدًا عن النقائص كلها، ومعروفًا بنسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فهو المؤهل للرسالة.

* أبرز جعفر محاسن الإسلام، وأخلاقه، التي تتفق مع أخلاقيات دعوات الأنبياء كنبذ عبادة الأوثان وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة؛ وكون النجاشي وبطارقته موغلين في النصرانية، فهم يدركون أن هذه رسالات الأنبياء، التي بعثوا بها من لدن موسى، وعيسى عليهما الصلاة والسلام.

* فضح مافعلته قريش بهم؛ لأنهم رفضوا عبادة الأوثان، وآمنوا بما نزل على محمد ﷺ، وتخلقوا بخلقه.

* أحسن الثناء على النجاشي بما هو أهله، بأنه لا يظلم عنده أحد، وأنه يقيم العدل في قومه.

* وأوضح أنهم اختاروه كهفاً من دون الناس، فرارًا من ظلم هؤلاء الذين يريدون تعذيبهم.

وبهذه الخطوات البينة الواضحة، دحر بها بلاغة عمرو وفصاحته، واستأثر بلب النجاشي وعقله، وكذلك استأثر بلب وعقل البطارقة، والقسيسين الحاضرين.

* وعندما طلب الملك النجاشي شيئًا مما نزل على محمد ﷺ، جاء صدر سورة مريم في غاية الإحكام والروعة والتأثير، حتى بكى النجاشي وأساقفته، وبللوا لحاهم ومصاحفهم من الدموع، واختيار جعفر لسورة مريم، يظهر بوضوح حكمة وذكاء مندوب المهاجرين، فسورة مريم تتحدث عن مريم وعيسى عليهما السلام[٢].

* إن عبقرية جعفر رضي الله عنه في حسن اختيار الموضوع، والزمن المناسب، والقلب المتفتح، والشحنة العاطفية، أدت إلى أن يربح الملك إلى جانبه[٣].

* كان رده في قضية عيسى عليه السلام، دليلاً على الحكمة والذكاء النادر، فرد بأنهم لا يألهون

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٣١٩، ٣٤٠).

(٢) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠٦).

(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ٣٣٧).

عيسى ابن مريم، ولكنهم كذلك لا يخوضون في عرض مريم ـ عليها السلام ـ كما يخوض الكاذبون ـ بل عيسى ابن مريم كلمة الله وروحه ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة، وليس عند النجاشي زيادة عما قال جعفر، ولا مقدار هذا العود[١].

* هم لا يسجدون للنجاشي، فهم معاذ الله أن يعدلوه بالله، ولا ينبغي السجود إلا لله، لكنهم لايستخفون بالملك، بل يوقرونه، ويسلمون عليه، كما يسلمون على نبيهم، ويحيونه بما يُحيي أهل الجنة أنفسهم به في الجنة[١].

* انتهى الأمر بأن أعلن النجاشي صدق القوم، وأيقن بأن هؤلاء صديقون، وعزم على أن يكون في خدمة رسول الله ﷺ، الذي يأتيه الناموس كناموس موسى، وأن يتقرب إلى الله بحماية أصحابه، وأكد لعمرو أنه لا يضيره تجارة قريش، ولا مال قريش، ولاجاهها، ولو قطعت علاقتها معه[١].

١٥ ـ وبذلك انهزمت قريش في هذه الجبهة سياسيًا ومعنويًا وإعلاميًا، أمام مقاومة المسلمين الموفقة وخطواتهم، وأساليبهم الرصينة.

١٦ ـ كان موقف جعفر وإخوانه مثالاً تطبيقياً لقول رسول الله ﷺ: «من التمس رضا الله بسخط الناس، كفاه الله مُؤْنَة الناس، ومن التمس رضا الناس بِسَخَط الله، وَكَلَه الله إلى الناس»[٢] فهؤلاء الصحابة رضي الله عنهم، قد التمسوا رضا الله عز وجل، مع أن الظاهر في الأمر أنه يترتب عليه في هذه القضية سخط أولئك النصارى، وهم الذين لهم الهيمنة عليهم، فكانت النتيجة أن الله عز وجل سخر لهم قلب ملك الحبشة، حتى نطق بالحق الموافق لدعوة النبي ﷺ، مع مخالفته الصريحة لمعتقدهم المنحرف، الذي قام عليه مُلْكُهم، وما يغلب على الظن من ثورة النصارى المتعصبين عليه[٣].

١٧ ـ كان عند بعض النصارى إيمان صحيح بدينهم، ولكنهم يكتمون ذلك، لكون الغلبة والسيادة في الأرض لأصحاب الدين المحرف، ومن الذين كانوا على الاعتقاد الصحيح ملك الحبشة وكان يخفي إيمانه، إرضاءً لربه وإراحة لضميره، وانتصاراً لحزب الله المؤمنين، مهما ترتب على ذلك من نتائج؛ فكان بهذا الموقف من عظماء التاريخ[٤].

١٨ ـ ومن دروس هجرة الحبشة، أن الجهل ببعض أحكام الإسلام لمصلحة راجحة لا يضر، قال ابن تيمية رحمه الله وهو يقرر العذر بالجهل: «ولما زيد في صلاة الحضر حين هاجر ﷺ إلى المدينة كان مَنْ بعيدًا عنه مثل من كان بمكة، وبأرض الحبشة يصلون ركعتين، ولم

---

(١) المصدر السابق (١/ ٣٤٢).

(٢) سنن الترمذي، كتاب الزهد، تحفة الأحوذي (٧/ ٩٧) ورقمه (٢٤١٤) وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٣) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٢/ ١٠٥).

(٤) المصدر نفسه (٢/ ١٠٦)

يأمرهم النبي ﷺ بإعادة الصلاة»[١].

وقال الذهبي: «فلا يأثم أحد إلا بعد العلم، وبعد قيام الحجة.. وقد كان سادة الصحابة بالحبشة، ينزل الواجب والتحريم على النبي ﷺ، فلا يبلغهم إلا بعد أشهر، فهم في تلك الأمور معذورون بالجهل، حتى يبلغهم النص..»[٢].

١٩ ـ ومن دروس هجرة الحبشة؛ تفاضل الجهاد حسب الحاجة، فإذا كانت الهجرة للمدينة جهادًا، ميز الله أصحابها، وخصهم بالذكر والفضيلة، فقد نال هذا الفضل أصحاب هجرة الحبشة، وإن تأخر لحوقهم بالنبي ﷺ، حتى فتح خيبر، وذلك للحاجة لبقائهم في الحبشة، وهذا ما أكده النبي ﷺ لأصحاب السفينتين[٣]. عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: ودخلت أسماء بنت عميس ـ وهي ممن قدم معنا ـ على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة، وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: من هذه؟ قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشيةُ هذه، البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله ﷺ منكم، فغضبت، وقالت: كلا والله كنتم مع رسول الله ﷺ يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار ـ أو في أرض ـ البُعَداء البُغَضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وايْمُ الله لا أطعم طعامًا، ولا أشرب شرابًا، حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إن عمر قال كذا وكذا، قال: «فما قلت له»؟ قالت: قلت له: كذا وكذا، قال: «ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان»، قالت: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتون أرسالا، يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرحُ ولا أعظمُ في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ[٤].

٢٠ ـ كانت بداية إسلام عمرو بن العاص رضي الله عنه، بأرض الحبشة، وهذا بلا شك أثر من آثار الهجرة للحبشة، وبرهان على ما حققه المهاجرون من مكاسب للدعوة، من خلال مكوثهم بأرض الحبشة، وإن كانت كثير من المرويات تتجه إلى أن بداية إسلام عمرو بن العاص، كانت على يد النجاشي، وهو المشهور كما يقول ابن حجر[٥]، وهي لطيفة لا مثل لها، إذ

---

(١) الفتاوى (٢٢/ ٤٣).

(٢) الكبائر (ص ١٢).

(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ٢٠٥).

(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر (٨/٥) ورقمه (٤٢٣٠، ٤٢٣١).

(٥) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ١٦٧).

أسلم صحابي على يد تابعي، كما يقول الزرقاني[١]، وهناك ما يفيد إسلام عمرو على يد جعفر ﷺ.

٢١ - يرتبط زواج الرسول ﷺ بأم حبيبة، بهجرة الحبشة ارتباطًا وثيقًا، ويحمل هذا الزواج منه ﷺ، لإحدى المهاجرات الثابتات، معنى كبيرًا، وكان عقد الزواج على أم حبيبة رضي الله عنها، وهي في أرض الحبشة، وجاء تأكيده في كتب السنة، فقد روى أبو داود في سننه بسند صحيح، «عن أم حبيبة رضي الله عنها، أنها كانت تحت عبيد الله بن جحش، فمات بأرض الحبشة، فزوجها النجاشيُّ النبيَّ ﷺ، وأمهرها عنه أربعة آلاف، وبعث بها إلى رسول الله ﷺ مع شُرحبيل ابن حسنة»[٢].

ويستنتج الباحث من دلالات هذا الحديث المهم، متابعة الرسول ﷺ لأحوال المهاجرين، ومشاركتهم في مصابهم، وتطييبَ أنفس الصابرين، وتقديرَ ثبات الثابتين، وبالتتبع لأحوال المهاجرات الثابتات، معنى كبيرًا، [فلم تكن] (أم حبيبة) رضي الله عنها هي الوحيدة التي يعنى الرسول الكريم ﷺ بأمرها، ويواسيها في مصابها، بل سبق ذلك صنيعه مع (سودة) رضي الله عنها [٣]، فلما رجعت مع زوجها إلى مكة من الحبشة توفي زوجها السكران بن عمرو، فلما حلت، أرسل إليها ﷺ وخطبها، فقالت: أمري إليك يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «مري رجلاً من قومك يزوجك» فأمرت حاطب بن عمرو بن عبد شمس بن عبد ود، فزوجها، فكانت أول أمرأة تزوجها رسول الله ﷺ بعد خديجة[٤].

وهذان الحدثان مؤشران من مؤشرات حكمة تعدده ﷺ في الزواج بشكل عام، ولهما دلالتهما وحكمتهما بالاهتمام بالنساء المجاهدات، بشكل خاص، هذا فضلاً عما يمكن أن يقال، أن الرسول ﷺ كان يهدف أيضًا من وراء الزواج بأم حبيبة تخفيف عداوة (بني أمية) بشكل عام، وتخفيف عداوة زعيمهم أبي سفيان (والدها) بشكل أخص، للإسلام ونبيه والمسلمين[٥].

فالتأليف للإسلام وارد في السيرة، والرسول ﷺ كان حريصًا على قومه بكل وسيلة، لا تتنافى مع قيم الإسلام[٦].

٢٢ - يرى بعض الباحثين أن النبي ﷺ لم يكن يحب أن يهاجر إلى الحبشة، لأسباب كثيرة؛ منها:

---

(١) انظر: شرح المواهب (١/ ٢٧١).

(٢) صحيح سنن أبي داود للألباني (٢/ ٣٩٦) ورقمه (٢١٠٧).

(٣) انظر: الهجرة الأولى في الإسلام (ص ١٨٨).

(٤) الطبقات (٨/ ٣).

(٥) السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية، د. مهدي رزق الله (ص ٧٠٦، ٧٠٧).

(٦) انظر: الهجرة الأولى (ص ٨٨).

- أنه ثبت ـ كما سيجيء ـ رؤية النبي ﷺ دار الهجرة أرضًا ذات نخل، بين حَرَّتين وأنه ظنها هَجَر[١].
- طبيعة الوضع الجغرافي للحبشة، الذي يعوق انتشار الدعوة وبسط سلطانها على العالم.
- أن اختيار الجزيرة العربية ـ ومكة بالذات، ثم المدينة ـ لنزول الوحي، وانطلاق الدين لم يكن اتفاقيًا، بل كان لمميزات كثيرة[٢].
- أن هذه البيئة الحبشية لم تكن لتسمح لهذا الدين اللاجيء أن ينمو إلى جوار المسيحية، ولم تكن الرومان ـ وهي المهيمنة على المسيحية في العالم ـ لتسمح للحبشة بذلك[٣].

٢٣ ـ كان للهجرة إلى الحبشة، أثر في الحط من مكانة القرشيين عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدعوة وحملتها، إذ كانت البيئة العربية تفتخر بإيواء الغريب، وإكرام الجار، وتتنافس في ذلك، وتحاذر السبة والعار في خلافه، فها هم الأحباش يسبقون قريشًا، ويؤوون من طردتهم، وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم، ومن غربائهم[٤].

المبحث الثالث

عام الحزن ومحنة الطائف

أولاً: عام الحزن:

١ ـ وفاة أبي طالب:

كانت وفاة أبي طالب بعد مغادرة بني هاشم شِعبه، وذلك في آخر السنة العاشرة من المبعث[٥]. وقد كان أبو طالب «يحوط النبي ﷺ ويغضب له»[٦] و«ينصره»[٧]، وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة، جاء زعماء الشرك وحرضوه على الاستمساك بدينه، وعدم الدخول في الإسلام، قائلين: أترغب عن ملة عبد المطلب؟ وعرض عليه رسول الله ﷺ الإسلام قائلاً: «قل لا إله إلا الله أشهد لك بها يوم القيامة»، فقال أبو طالب: لولا تعيرني بها

---

(١) هَجَر: هي الأحساء.
(٢) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٦٩، ١٧٠).
(٣) انظر: أضواء على الهجرة (ص ١٥٦ ـ ١٦١)، الهجرة في القرآن الكريم (ص ٣٢٠).
(٤) انظر: الغرباء الأولون (ص ١٧٠، ١٧١).
(٥) فتح الباري (٧/ ١٩٤).
(٦) صحيح البخاري (فتح الباري ٧/ ١٩٣) ورقمه ٣٨٨٣).
(٧) صحيح مسلم (١/ ١٩٥ ورقمه [٣٥٨ ـ ٢٠٩]).

قريش، يقولون: إنما حمله عليها الجزع، لأقررت بها عينك، فأنزل الله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القَصَص: الآية ٥٦] كانت أفكار الجاهلية راسخة في عقل أبي طالب، ولم يتمكن من تغييرها، فهو شيخ كبير يصعب عليه تغيير فكره وما ألفه عن آبائه، وكان أقرانه حاضرين وقت احتضاره، فأثروا عليه خوفًا من شيوع خبر إسلامه، وتأثير ذلك على قومه(١).

٢ ـ وفاة خديجة رضي الله عنها:

أما السيدة خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها، فقد توفيت قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين(٢) في العام نفسه لوفاة أبي طالب(٣).

وبموت أبي طالب، الذي أعقبه موت خديجة رضي الله تعالى عنها، تضاعف الأسى والحزن على رسول الله ﷺ بفقد هذين الحبيبين، اللذين كانا دعامتين من دعائم سير الدعوة في أزماتها، كان أبو طالب السند الخارجي، الذي يدفع عنه القوم، وكانت خديجة السند الداخلي، الذي يخفف عنه الأزمات والمحن، فتجرأ كفار قريش على رسول الله ﷺ، ونالوا منه ما لم يكونوا يطمعون فيه في حياة أبي طالب(٤)، وابتدأت مرحلة عصيبة في حياة الرسول ﷺ، واجه فيها كثيرًا من المشكلات والمصاعب، والمحن والفتن، حينما أصبح في الساحة وحيدًا لا ناصر له إلا الله سبحانه وتعالى، ومع هذا، فقد مضى في تبليغ رسالة ربه إلى الناس كافة، على مايلقى من الخلاف، والأذى الشديد، الذي أفاضت كتب الحديث وكتب السير، بأسانيدها الصحيحة الثابتة في الحديث عنه، وتحمل ﷺ من ذلك ما تنوء الجبال بحمله، ولما تكالبت الفتن، والمحن على رسول الله ﷺ، في بلده الذي نبت فيه، وبين قومه الذين يعرفون عنه كل صغيرة وكبيرة، عزم ﷺ على أن ينتقل إلى بلد غير بلده، وقوم غير قومه، يعرض عليهم دعوته، ويلتمس منهم نصرتهم، رجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ، فخرج إلى الطائف، وهي من أقرب البلاد إلى مكة(٥).

ثانيًا: رحلة الرسول ﷺ إلى الطائف:

كان النبي ﷺ يقتدي بالأنبياء والمرسلين، الذين سبقوه في الدعوة إلى الله، فهذا نوح لبث في قومه داعياً: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العَنكبوت: الآية ١٤]، فكانت هذه الأعوام الطويلة عملاً دائباً، وتنويعاً متكرراً: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ

(١) انظر: السيرة النبويّة الصحيحة للعمري (١/ ٨٤).
(٢) المصدر نفسه(١/ ١٨٥).
(٣) المصدر السابق (١/ ١٨٥).
(٤) انظر: محنة المسلمين في العهد المكي (ص ٣٤).
(٥) انظر: المصدر السابق (ص ٣٦ـ ٤٥).

﴿أَلِيمٌ ① قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ② أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ③ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ④ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ⑤ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ⑥ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ⑦ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ⑧ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: الآيات ١ ـ ٩].

ـ ومع امتداد الزمن الطويل، ما توقف عن الدعوة، ولا ضعفت همته في تبليغها، ولا ضعفت بصيرته، وحيلته في تنويع أوقاتها وأساليبها، قال الآلوسي في تفسيره ﴿لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ أي إلى الإيمان والطاعة، أي دائمًا من غير فتور ولا توان، ثم وصف إعراضهم الشديد، وإصرارهم العنيد، ثم علق على قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ فقال: أي دعوتهم مرة بعد مرة، وكرة غبَّ كرة، على وجوه مختلفة وأساليب متفاوتة، وهو تعميم لوجوه الدعوة، بعد تعميم الأوقات، وقوله: ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾ يشعر بمسبوقية الجهر بالسر، وهو الأليق بمن همه الإجابة لأنه أقرب إليها لما فيه من اللطف بالمدعو[1].

فكان النبي ﷺ ينوع ويبتكر في أساليب الدعوة، ودعا سرًّا وجهرًا، وسلمًا وحربًا، وجمعًا وفردًا، وسفرًا وحضرًا، كما أنه ﷺ قص القصص، وضرب الأمثال، واستخدم وسائل الإيضاح، بالخط على الأرض، وغيره، كما رغَّب وبشر، ورهَّب وأنذر، ودعا في كل آن، وعلى كل حال، وبكل أسلوب مؤثر فعال[2]، فها هو ﷺ ينتقل إلى الطائف، ثم يتردد على القبائل، ثم يهاجر، ويستمر في دعوة الخلق إلى الله تعالى.

كان رسول الله ﷺ يسعى لإيجاد مركز جديد للدعوة، وطلب النصرة من ثقيف، لكنها لم تستجب له، وأغرت به صبيانها فرشقوه بالحجارة، وفي طريق عودته من الطائف التقى بعدَّاس، الذي كان نصرانيًّا فأسلم، وأرخ الواقدي الرحلة في شوال سنة عشر من المبعث، بعد موت أبي طالب وخديجة، وذكر أن مدة إقامته بالطائف كانت عشرة أيام[3].

١ ـ لماذا اختار الرسول ﷺ الطائف؟

كانت الطائف تمثل العمق الاستراتيجي لملأ قريش، بل كانت لقريش أطماع في الطائف، ولقد حاولت في الماضي أن تضم الطائف إليها، ووثبت على وادي وَجّ، وذلك لما فيه من الشجر والزرع، حتى خافتهم ثقيف، وحالفتهم، وأدخلت معهم بني دوس[4]، وقد كان كثير

(١) انظر: تفسير الآلوسي (١٠/ ٨٩).

(٢) انظر: مقومات الدعوة والداعية، بادحدح (ص ١٢٣).

(٣) طبقات ابن سعد (١/ ٢٢١) نقلاً عن السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٥).

(٤) انظر: فتح الباري، كتاب الكفالة (٤/ ٣٧٣ شرح ـ ح ـ رقم ٢٢٩٤).

من أغنياء مكة يملكون الأملاك في الطائف، ويقضون فيها فصل الصيف، وكانت قبيلة بني هاشم، وعبد شمس على اتصال مستمر مع الطائف، كما كانت تربط مخزوم مصالح مالية مشتركة بثقيف[١]، فإذا اتجه الرسول ﷺ إلى الطائف، فذلك توجه مدروس، وإذا استطاع أن يجد له فيها موضع قدم، وعصبة تناصره، فإن ذلك سيفزع قريشًا، ويهدد أمنها، ومصالحها الاقتصادية تهديدًا مباشرًا، بل قد يؤدي لتطويقها وعزلها عن الخارج. وهذا التحرك الدعوي السياسي الاستراتيجي، الذي يقوم به الرسول ﷺ يدل على حرصه في الأخذ بالأسباب؛ لإيجاد دولة مسلمة أو قوة جديدة، تطرح نفسها داخل حلبة الصراع، لأن الدولة أو إيجاد القوة التي لها وجودها، من الوسائل المهمة في تبليغ دعوة الله إلى الناس.

عندما وصل النبي ﷺ إلى الطائف اتجه مباشرة إلى مركز السلطة وموضع القرار السياسي في الطائف[٢].

٢ ـ أين كان موضع السلطة في الطائف؟

كان بنو مالك، والأحلاف ـ بحكم أسبقيتهم الزمنية للاستيطان ـ هما المسيطرين عليها، وتنتهي إليهما قيادتها، فكانت لهما الرسائل الدينية المتمثلة في رعاية المسجد، بالإضافة إلى الزعامة السياسية العامة، والعلاقة الخارجية، والنفوذ الاقتصادي، إلا أنهما مع ذلك لم يكونا في وضع يمكنهما من الدفاع عن منطقة الطائف، التي كانت من أخصب بلاد العرب، وأكثرها جذبًا للأنظار والأطماع، فكانا يخافان قبيلة هوازن، ويخافان قريشًا ويخافان بني عامر، وكلها قبائل قوية، وقادرة على الانقضاض والاستلاب، ولذلك فقد اعتمد زعماء الطائف على سياسة المهادنة، وحفظ الاستقرار السياسي عن طريق المعاهدات والموازنات، وهي الطريقة عينها التي كانت تسير عليها قريش، فصار بنو مالك يوثقون علاقاتهم مع هوازن، ليأمنوا شرها، وصار الأحلاف يرتبطون بقريش لتأمين جانبها[٣].

هذا ولم يكن الرسول ﷺ غافلاً عن هذه الشبكة من العلاقات والمعاهدات، وهو يتجه إلى الطائف، بل كان يعرف أن الطائف لم تكن توجد بها سلطة مركزية واحدة، وإنما يقتسم السلطة فيها بطنان من بطون العرب، بموجب اتفاقية داخلية، وأن أيًّا منهما كان يدور في فلك قبيلة خارجية أقوى، فإذا استطاع أن يستميل إليه أيًّا منهما فسوف يكون لذلك أثر كبير في ميزان القوى السياسية، هذا على وجه العموم، أما إذا استطاع، على وجه الخصوص، أن يستميل إليه الأحلاف، وهو المعسكر المتحالف مع قريش، فإن خطته تكون قد بلغت تمامها، وهو أمر غير مستحيل، فهو يعلم أن موادة هذا المعسكر لقريش لا تقوم على القناعة

(١) انظر: أصول الفكر السياسي (ص ١٧٣).

(٢) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٧٤).

(٣) المصدر السابق نفسه (ص ١٧٤).

المذهبية، أو الولاء الديني، بقدر ماتقوم على أساس التخوف من قريش. وعلى هذا التقدير للوضع السياسي اتجه الرسول ﷺ مباشرة ـ حينما دخل الطائف ـ إلى بني عمرو بن عمير، الذين يترأسون الأحلاف، ويرتبطون بقريش، ولم يذهب إلى بني مالك الذين يتحالفون مع هوازن[١]، قال ابن هشام في السيرة: (لما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، عمد إلى نفر من ثقيف، هم يومئذٍ سادة ثقيف وأشرافهم، وهم أخوة ثلاثة، عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، حبيب بن عمرو، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جُمح[٢]، غير أن بني عمرو كانوا شديدي الحذر، وكثيري التخوف، فلم يستجيبوا لدعوة الرسول ﷺ، بل بالغوا في السفه، وسوء الأدب معه، فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقد يئس من خير ثقيف، وقال لهم: «إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عني»[٣] وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قومه عنه فيؤزرهم ذلك عليه، فقد كان رسول الله ﷺ يود أن تتم اتصالاته تلك في جو من السرية، وألا تنكشف تحركاته لقريش[٤]، فقد كان النبي ﷺ يهتم كثيرًا بجوانب الحيطة والحذر، فقد:

أ ـ كان خروجه من مكة على الأقدام، حتى لا تظن قريش أنه ينوي الخروج من مكة، لأنه لو خرج راكبًا فذلك مما يثير الشبهة والشكوك، وأنه ينوي الخروج والسفر إلى جهة ما، مما قد يعرضه للمنع من الخروج من مكة، دون اعتراض من أحد.

ب ـ واختيار الرسول ﷺ زيدًا يرافقه في رحلته، فيه جوانب أمنية، فزيد هو ابن رسول الله ﷺ بالتبني، فإذا رآه معه أحد، لا يثير ذلك أي نوع من الشك، لقوة الصلة بينهما، كما أنه ﷺ عرف زيدًا عن قرب، فعلم فيه الإخلاص والأمانة والصدق، فهو إذن مأمون الجانب، فلا يفشي سرًّا، ويعتمد عليه في الصيحة، وهذا ما ظهر عندما كان يقي النبيَّ ﷺ الحجارة بنفسه، حتى أصيب بشجاج في رأسه.

ج ـ وعندما كان رد زعماء الطائف ردًا قبيحًا مشوبًا بالاستهزاء والسخرية، تحمله الرسول ﷺ، ولم يغضب أو يَثُر، بل طلب منهم أن يكتموا عنه، فهذا تصرف غاية في الحيطة، فإذا علمت قريش بهذا الاتصال، فإنها لا تسخر منه فحسب، بل ربما شددت عليه في العذاب والاضطهاد، وحاولت رصد تحركاته داخل وخارج مكة[٥].

٣ ـ تضرع ودعاء:

كان بنو عمرو لئامًا، فلم يكتموا خبر الرسول ﷺ، بل أغروا به سفهاءهم، وعبيدهم،

---

(١) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٧٥).
(٢) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨).
(٣) سيرة ابن هشام (٢/ ٧٨).
(٤) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي.
(٥) في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١٠٩، ١١٠).

يسبونه ويرمون عراقيبه بالحجارة، حتى دميت عقباه، وتلطخت نعلاه، وسال دمه الزكي على أرض الطائف، وما زالوا به وبزيد بن حارثة، حتى ألجأوهما إلى حائط ـ بستان ـ لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، فكره مكانهما لعداوتهما لله ورسوله، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس فيه هو وصاحبه زيد، ريثما يستريحا من عنائهما، وما أصابهما، وابنا ربيعة ينظران إليه، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، ولم يحركا ساكنًا، وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن، والآلام النفسية والجسمانية توجه الرسول ﷺ إلى ربه بهذا الدعاء، الذي يفيض إيمانًا ويقيناً، ورضا بما ناله في الله، واسترضاء لله.

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي.

أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن تُنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العُتْبَى[1] حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[2].

٤ ـ الرحمة والشفقة النبوية:

كانت رحمته وشفقته العظيمة، هي التي تغلب في المواقف العصيبة، التي تبلغ فيها المعاناة أشد مراحلها، وتضغط بعنف على النفس لتشتد وتقسو، وعلى الصدر ليضيق ويتبرم، ومع ذلك تبقى نفسه الكبيرة، ورحمته العظيمة هي الغالبة[3].

فعن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ، أنها سألت رسول الله ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العَقَبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد يَالِيْل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[4]، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل. فناداني، فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا

(١) العُتْبَى: الاسترضاء.

(٢) ذهب الدكتور العمري إلى تضعيف الحديث في كتابه السيرة النبوية الصحيحة (١/ ١٨٦)، وذهب إبراهيم العلي إلى صحته، وبين أن للحديث شاهدًا يقويه، ولذلك اعتبره صحيحًا وذكره في كتابه، صحيح السيرة النبوية (ص ١٣٦)، وذهب الدكتور عبد الرحمٰن عبد الحميد البر مدرس الحديث وعلومه في جامعة الأزهر إلى أن الحديث بطريقيه قوي مقبول، فانظر ما أورده عنه في كتابه، الهجرة النبوية المباركة (ص ٣٨).

(٣) انظر: مقومات الداعية الناجح (ص ٧٦).

(٤) هو قرن المنازل، ميقات أهل نجد، ويسمى الآن السيل الكبير.

عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلم علي ثم قال: يا محمد فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين».

فقال النبي ﷺ: «بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشركُ به شيئًا»(١).

كانت إصابته ﷺ يوم أحد أبلغ من الناحية الجسمية، أما من الناحية النفسية، فإن إصابته يوم الطائف أبلغ وأشد، لأن فيها إرهاقاً كبيرًا لنفسه، ومعاناة فكرية شديدة، جعلته يستغرق في التفكير من الطائف إلى قرن الثعالب(٢).

وإنا لنلمح في هذا الدعاء عمق توحيد النبي ﷺ، ومبلغ تجرده لله جل وعلا، فرضوان الله تعالى إذن هو الهدف الأعلى عند رسول الله ﷺ، وهو المطلب الأعظم الذي تسخر له كل المطالب، وإذا كان البلاء من الله تعالى، من أجل أن يحل رضاه وينجلي سخطه، فحيهلا بالبلاء، وهو ساعتئذٍ نعمة ورخاء.

ثم يختم رسول الله ﷺ دعاءه بالكلمة العظيمة التي يقولها، وعلم أصحابه أن يقولوها عند حلول المكاره، «ولا حول ولا قوة إلا بك» فلا تحول للمؤمن من حال الشدة إلى حال الرخاء، ولا من الخوف إلى الأمن إلا بالله تعالى، ولا قوة على مواجهة الشدائد، وتحمل المكاره إلا بالله جل وعلا(٣).

إن الدعاء من أعظم العبادات، وهو سلاح فعال في مجال الحماية للإنسان، وتحقيق أمنه، فمهما بلغ العقل البشري من الذكاء والدهاء، فهو عرضة للزلل والإخفاق، وقد تمر على المسلم مواقف يعجز فيها عن التفكير والتدبير تمامًا، فليس له مخرج منها، سوى أن يجأر إلى الله بالدعاء، فما أن انتهى من الدعاء حتى جاءت الإجابة من رب العالمين، مع جبريل وملك الجبال(٤).

٥ ـ من مناهج التغيير:

كان مقترح ملك الجبال أن يطبق عليهم الأخشبين، وهو يدخل تحت أسلوب الاستئصال، وقد نفذ في قوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: الآية ٤٠].

---

(١) صحيح البخاري (رقم ٣٢٣١).

(٢) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٢٦، ٢٧).

(٣) المصدر السابق (٣/ ٢٠).

(٤) انظر: في السيرة النبوية قراءة لجوانب الحذر والحماية (ص ١١٢، ١١٣).

وكان هناك اقتراح آخر، وهو أن يستمر في هجرته، والابتعاد عن مكة والطائف الكافرتين؛ فالأولى أخرجته، والثانية خذلته، وعرض ذلك الأمر زيد بن حارثة على رسول الله ﷺ، قال ابن القيم: [إن رسول الله ﷺ بعد أن لم يجد ناصرًا في الطائف، انصرف إلى مكة، ومعه مولاه زيد بن حارثة محزونًا، وهو يدعو بدعاء الطائف المشهور، فأرسل ربه تبارك وتعالى ملك الجبال إليه يستأمره أن يطبق الأخشبين على أهل مكة، وهما جبلاها اللذان هي بينهما، فقال: «لا بل أستأني بهم، لعل الله يخرج من أصلابهم من يعبده، ولا يشرك به شيئًا»، . . . وأقام بنخلة أيامًا، فقال له زيد بن حارثة: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ـ يعني قريشًا ـ فقال: «يا زيد: إن الله جاعل لما ترى فرجًا ومخرجًا، وإن الله ناصرٌ دينَه ومظهر نبيه»[(١)].

إن النبي ﷺ رفض منهج الاستئصال، وامتنع عن فكرة الاعتزال، أو الهجرة المستمرة، ونظر إلى المستقبل بنور الإيمان، وقرر الدخول إلى مكة الكافرة، ليواصل جهاده الميمون، ويستثمر كل ما يستطيعه من أجل دعوة التوحيد، لم يَخْتَر النبي ﷺ أحد المنهجين السابقين، بل تقدم نحو المنهج البديل، الذي عزم عليه، وهو منهج يقوم على فكرة دخول مكة الكافرة، وليس الانسحاب منها، ويقوم على ضرورة الوجود على الأرض ذاتها التي يقف عليها الكافرون، واعتصار مؤسساتها واستثمار علاقاتها، وتحوير غاياتها ليتغذى بكل ذلك مجتمع المؤمنين، الذي سيولد من أحشائها؛ أي أنه كان ﷺ يريد أن يتخذ من أصلاب الكافرين مصانع بشرية تخرج أجيالاً من المسلمين المقاتلين في سبيل الله، فالنظر النبوي هنا مصوب نحو المستقبل، بصورة جلية، ولم يكن ذلك يعني الانسحاب من الحاضر[(٢)]، كان النبي ﷺ قد عزم على دخول مكة مرة ثانية؛ غير أن ظاهر الأحوال تدل على أن دخول مكة لم يكن أمرًا هينًا، ولا آمنًا، وهنالك احتمال كبير للغدر به، ولاغتياله من قبل قريش، التي لا يمكن أن تصبر أكثر؛ وهو قد أعلن الخروج عليها، وذهب يستنصر بالقبائل الأخرى، ويوقع بينها وبين حلفائها؛ ثم إنه حتى لو لم تكن هناك خطورة على شخصه، فإن دخوله إلى مكة بصورة (عادية) وقد طردته الطائف، سيجعل أهل مكة يصورون الأمر كهزيمة كبيرة، أصابت المسلمين، ويجترئون عليهم ويزدادون سفهًا؛ ولذلك فقد اتجه نظر الرسول ﷺ هذه المرة إلى تفجير مكة من الداخل، بدلاً من تطويقها من الخارج؛ أي أراد أن يتغلغل في داخل بطون قريش ذاتها، ويوجد له حلفاء من بينهم، ويُكَوِّن له وجودًا في قلبها[(٣)].

وذكر ابن هشام في السيرة في معرض الحديث عن إجارة المطعم بن عدي: إنه ﷺ لما انصرف عن أهل الطائف، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه ونصرته، صار إلى

---

(١) انظر: زاد المعاد (٢/ ٤٦، ٤٧)، وانظر تخريج القصة في طبعة مؤسسة الرسالة رقم (١٥) (جـ ٣/ ٣١ـ ٣٤).

(٢) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٧٦).

(٣) المصدر نفسه (ص ١٧٧، ١٧٨).

حِراء، ثم بعث إلى الأخنس بن شَريق؛ ليجيره فقال: أنا حليف والحليف لا يجير؛ فبعث إلى سُهيل بن عمرو، فقال له: إن بني عامر لا تجير على بني كعب؛ فبعث إلى المطعم بن عدي - سيد قبيلة بني نوفل بن عبد مناف - بعث إليه رجلاً من خُزاعة، «أَدْخُلُ في جوارك»؟ فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: البسوا السلاح وكونوا عند أركان البيت فإني قد أجرت محمدًا، فدخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحرام؛ فقام المطعم بن عدي على راحلته، فنادى: يا معشر قريش إني قد أجرت محمدًا فلا يَهِجْه أحد منكم، فانتهى رسول الله ﷺ إلى الركن فاستلمه وصلى ركعتين وانصرف إلى بيته، والمطعِم بن عدي وولده، مُحدقون به بالسلاح حتى دخل بيته[1].

لقد تغير الوضع كثيرًا بسبب منهجية الرسول ﷺ الجديدة، فبدلاً من أن يدخل مكة منهزمًا مختفيًا، دخلها ويحرسه بالسلاح سيد من سادات قريش، على مسمع منهم ومرأى، هذا ونلاحظ أن الرسول ﷺ قد اختار رجلاً من خزاعة، فبعثه رسولاً، وفي هذين الاختيارين حنكة سياسية مدهشة، ووعي تاريخي ودبلوماسي عميق، لأن نوفلاً، وهو الأب الأكبر لقبيلة بني نوفل التي يتزعمها المطعم بن عدي آنئذٍ، كان خصيمًا لعبد المطلب جد رسول الله ﷺ في الجاهلية، فقد وثب على أفنية وساحات كانت لعبد المطلب، واغتصبها؛ فاضطرب عبد المطلب لذلك، واستنهض قومه، فلم ينهض كبير أحد منهم؛ فكتب إلى أخواله، من بني النجار من الخزرج، قصيدة يستنصرهم؛ قالوا: فقدم عليه منهم جمع كثيف فأناخوا بفناء الكعبة، وتنكبوا القسي، وعلقوا التراس؛ فلما رآهم نوفل، قال: لِشَرٍّ ماقدم هؤلاء؟ فكلموه، فخافهم، ورد أركاح عبد المطلب إليه؛ فلما نصر بنو الخزرج عبد المطلب، قالت خزاعة، وهم قد قووا وعزوا: والله ما رأينا بهذا الوادي أحدًا حسن وجهًا، ولا أتم خلقًا، ولا أعظم حلمًا من هذا الإنسان، يعنون عبد المطلب، وقد نصره أخواله من الخزرج، وقد ولدناه كما ولدوه، وإن جده عبد مناف، لابن حبي بنت حليل بن حبشية سيد خزاعة، ولو بذلنا له نصرنا وحالفنا، انتفعنا به، وبقومه، وانتفع بنا، فأتاه وجوههم، فقالوا: يا أبا الحارث، إنا قد ولدناك كما ولدك قوم من بني النجار، ونحن بعد متجاورون في الدار، وقد أماتت الأيام ما يكون في قلوب بعضنا على قريش من الأحقاد، فهلم فنحالفك، فأعجب ذلك عبد المطلب، وقبله وسارع إليه، ولم يحضر أحد من بني نوفل، ولا عبد شمس[2].

هذا النص يشير إلى جذور الصراع التاريخي القديم، بين خزاعة وقريش حينما جمع قصي بن كلاب قريشًا، من متفرقات المواقع، وقاتل بهم خزاعة التي كانت لديها رئاسة البيت، وسيادة العرب، فأخرج خزاعة من البيت، وقسم مكة أرباعًا على قريش، فما زالت

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٣٨١) ثم زاد المعاد (٢/ ٤٧).

(٢) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري، تحقيق محمد حميد الله (١/ ٧١).

خزاعة مبغضة لقريش، كارهين لها؛ ولما اضطرب الأمر بين قريش وعبد المطلب، تحالفت خزاعة مع عبد المطلب، نكاية بقريش، وإضعافًا لها؛ وليس صحيحًا أن الأيام قد أماتت ما كان في قلوب بعضهم على قريش من الأحقاد، كما ذكر وفدهم، بل الصحيح أن الأحقاد لم تزل حية، والصراع لم يزل مستمرًا، ومما يدل على ذلك، أن بني نوفل، وبني عبد شمس لم يدخلا ولم يحضرا هذا الحلف؛ إذ أنه حلف مضاد لهما.

فإذا بعث الرسول ﷺ رجلاً من خزاعة إلى سيد قبيلة بني نوفل فإن هذا الفعل إشارة ظاهرة إلى تلك الوقائع التاريخية، التي ذكرناها، كما فيها تذكير بالحلف القديم بين عبد المطلب وخزاعة، ضد بني نوفل، وعبد شمس، ليفهم من ذلك أن الرسول ﷺ لا يقف معزولاً في مكة، وأنه قد يفعل ما فعله جده عبد المطلب، فيتحالف مع خزاعة، أو يستنصر بالخزرج؛ فالرسول ﷺ لم يكن في الواقع (يستعطف) المطعم بن عدي سيد بني نوفل، ليدخل في جواره، بقدر ماكان يهدده ويثير مخاوفه، وحماية المطعم بن عديّ لرسول الله ﷺ لم تكن مجرد (أَرِيْحيَّة) ونبل، بقدر ما كانت رعاية لمصلحته وحماية لوضعه، وصَمْتُ قريش وهي ترى محمدًا ﷺ يدخل في جوار بني نوفل، ويحرسونه بالسلاح، لم يكن خوفًا من سلاح، وإنما خوفًا من سلاح خزاعة، وقسي الخزرج[١].

كما لا ننسى أن المطعم ممن قام ينقض الصحيفة الظالمة، مع من ذكرنا فيما مضى، وممن تحسن موقفه بعد تقريع أبي طالب له، عندما قال:

أمطعم لم أخذلك في يوم نجدة ... ولا مُعظِم عند الأمور الجلائل
جزى الله عنا عبد شمس ونوفلاً ... عقوبة شر عاجلاً غير آجل[٢]

وقد حفظ رسول الله ﷺ صنيع مطعم بن عدي، وعرف مدى الخطورة التي عرض نفسه وولده وقومه لها من أجله، فقال عن أسارى بدر السبعين يوم أسرهم:

«لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له»[٣].

فمع العداء العقدي، فرسول الله ﷺ يفرق بين من يعادي هذه العقيدة ويحاربها، ومن يناصرها ويسالمها، إنهم وإن كانوا كفارًا فليس من سمة النبوة أن تتنكر للجميل[٤].

وهكذا ﷺ كان يوظف الأعراف والتقاليد التي في مجتمعه لمصلحة الإسلام، فكان ينظر للبناء الاجتماعي القائم، باعتباره حقيقة موضوعية تاريخية، وينظر للإنسان الكافر ليس

(١) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن المكي (ص ١٨٠).
(٢) انظر: التحالف السياسي في الإسلام (ص ٣٦).
(٣) البخاري، كتاب (٦٤) باب (١٢) ورقمه (٤٠٢٤).
(٤) انظر: التحالف السياسي (ص ٤٤).

باعتباره رقمًا حسابيًّا فرديًّا منقطعًا، وإنما ينظر إليه كفرد في شبكة اجتماعية متداخلة العلاقات، ومتنوعة الدوافع، وإن الإنسان يملك الفرصة والإمكان، لأن يتحول هو نفسه وطوع إرادته إلى قوة اجتماعية مؤثرة، وله وزن في اتخاذ القرار ونقضه، وَفْقًا للقيم التي يختارها، والمطعم بن عدي لم يكن فردًا، وإنما كان مؤسسة، وهي مؤسسة لم تولد بميلاده، وإنما يرجع وجودها إلى تاريخ قديم، تصارعت فيها قيم التوحيد والإشراك، فإن صارت مؤسسة خالصة للكافرين الآن، فلا يعني ذلك استحالة الانتفاع بها وتسخيرها للعودة للإيمان والتوحيد[١].

٦ ـ قصة عدَّاس النصراني، وإسلام الجن:

لقد حققت رحلة النبي ﷺ انتصارات دعوية رفيعة المستوى، فقد تأثر بالدعوة الغلام النصراني عداس، الذي أسلم[٢]، كما وصلت الدعوة إلى الجن السبعة، الذين أسلموا ثم انطلقوا إلى قومهم منذرين.

أ ـ قصة عداس:

لما تعرض رسول الله ﷺ للأذى من أهل الطائف، وخرج من عندهم، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وهما فيه، فلما رآه عتبة وشيبة رَقَّا له، ودعوا غلامًا لهما نصرانياً، يقال له عدَّاس، فقالا له: خذ قطفاً من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عدَّاس، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كل.

فلما وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: «بسم الله»، ثم أكل، فنظر عدَّاس في وجهه، ثم قال: والله إن هذا الكلام، مايقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: «ومن أهل أي البلاد أنت يا عدَّاس؟ وما دينك؟» قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى.

فقال رسول الله ﷺ: «من قرية الرجل الصالح يونس بن متى»، فقال له عدَّاس: وما يدريك ما يونس بن متى؟ فقال رسول الله ﷺ: «ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي»، فأكب عدَّاس على رسول الله ﷺ يقبل رأسه ويديه وقدميه. قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أما غلامك فقد أفسده عليك؛ فقلما جاءهما عدَّاس قالا له: ويلك يا عدَّاس! مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي مافي الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر مايعلمه إلا نبي، قالا له: ويحك يا عدَّاس، لا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه[٣].

* إن تسمية النبي ﷺ قبل الأكل، تطبيق لسنة من سنن الإسلام الظاهرة، وقد كان من

---

(١) انظر: أصول الفكر السياسي (ص ١٨١).

(٢) انظر: الرسول المبلغ، لصلاح الخالدي (ص ٣٩، ٤٠).

(٣) صحيح السيرة النبوية (ص ١٣٦، ١٣٧).

بركة ذلك، انجذاب الرجل النصراني إلى الإسلام، فما أن ذكر رسول الله ﷺ اسم الله تعالى قبل الأكل، حتى اهتز كيان ذلك المولى النصراني وجاشت مشاعره، فأخبر النبي ﷺ بعجبه من ذلك، حيث لا يعرف أهل تلك البلاد ذكر اسم الله تعالى.

* إن التسمية قبل الأكل كسائر السنن الظاهرة، من أسباب تميز المسلمين على من حولهم من الوثنيين، وهذا التميز يلفت أنظار الكفار، ويدفعهم إلى السؤال عن سبب ذلك، ثم يقودهم ذلك إلى فهم الدين الإسلامي والانجذاب إليه(١).

* كان يقين عداس بنبوة رسول الله ﷺ قويًا، يدل على ذلك موقفه من سيديه عتبة، وشيبة ابني ربيعة، لما أرادا الخروج إلى بدر، وأمراه بالخروج معهما، حيث قال لهما: قتال ذلك الرجل الذي رأيت في حائطكما تريدان؟ فوالله لا تقوم له الجبال، فقالا: ويحك يا عداس قد سحرك بلسانه(٢).

* في قول عداس، والله ما على الأرض خير من هذا، مواساة عظيمة، فلئن آذاه قومه، فهذا وافد من العراق، من نينوى، يكب على يديه ورجليه، ويقبلهما، ويشهد له بالرسالة، وإن هذا لقدر رباني، يسوق من نينوى من يؤمن بالله ورسوله حيث كان الصد من أقرب الناس إليه(٣).

ب ـ إسلام الجن:

لما انصرف النبي ﷺ من الطائف، راجعًا إلى مكة، حين يئس من خير ثقيف، حتى إذا كان بنخلة، قام من جوف الليل يصلي، فمر به النفر من الجن، الذين ذكرهم الله تعالى، وكانوا سبعة نفر من جن أهل نصيبين، فاستمعوا لتلاوة الرسول ﷺ، فلما فرغ من صلاته، ولّوا إلى قومهم منذرين؛ قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، فقص الله تعالى خبرهم على النبي ﷺ، فقال: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآيتان ٢٩، ٣٠].

هبط هؤلاء الجن على النبي ﷺ، وهو يقرأ ببطن نخلة، فلما سمعوه؛ قالوا: ﴿أَنصِتُواْ﴾.

هذ الدعوة التي رفضها المشركون بالطائف، تنتقل إلى عالم آخر، هو عالم الجن، فتلقوا دعوة النبي ﷺ، ومضوا بها إلى قومهم، كما مضى بها أبو ذر الغفاري إلى قومه، والطفيل بن عمرو إلى قومه، وضماد الأزدي إلى قومه، فأصبح في عالم الجن دعاة يبلغون دعوة الله

(١) انظر: التاريخ الإسلامي (٣/ ٢٢).

(٢) انظر: سبل الهدى والرشاد (٢/ ٥٧٨).

(٣) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٣٧).

تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأحقاف: الآية ٣١].

وأصبح اسم محمد ﷺ تهفو إليه قلوب الجن، وليس قلوب المؤمنين من الإنس فقط، وأصبح من الجن حواريون، حملوا راية التوحيد، ووطنوا أنفسهم دعاة إلى الله. ونزل في حقهم قرآناً يتلى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ۝٧ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ۝١١ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ۝١٢ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجنّ: ١ ـ ١٣].

كان هذا الفتح الرباني في مجال الدعوة، ورسول الله ﷺ ببطن نخلة عاجز عن دخول مكة، فهل يستطيع عتاة مكة وثقيف أن يأسروا هؤلاء المؤمنين من الجن، وينزلوا بهم ألوان التعذيب[1]؟ وعندما دخل النبي ﷺ مكة في جوار المطعم بن عدي، كان يتلو على صحابته سورة الجن، فتتجاوب أفئدتهم خشوعًا وتأثرًا، من روعة الفتح العظيم في عالم الدعوة، وارتفاع راياتها، فليسوا هم وحدهم في المعركة، هناك إخوانهم من الجن يخوضون معركة التوحيد مع الشرك.

وبعد عدة أشهر من لقاء الوفد الأول من الجن برسول الله ﷺ جاء الوفد الثاني متشوقًا لرؤية الحبيب المصطفى ﷺ، والاستماع إلى كلام رب العالمين[2]. فعن علقمة، قال: سألت ابن مسعود فقلت: هل شهد أحد منكم مع رسول الله ليلة الجن؟ قال: لا، ولكنَّا كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشِّعاب، فقلنا: استُطير أو اغتيل، قال: فبتنا بشر ليلة بات بها قوم، فلما أصبحنا إذا هو جاء من قبل حراء، فقلنا: يا رسول الله، فقدناك فطلبناك فلم نجدك، فبتنا شر ليلة بات بها قوم، فقال: «أتاني داعي الجن، فذهبت معه، فقرأت عليهم القرآن»، قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم، وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد فقال: «لكم كل عَظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر ما يكون لحمًا، وكل بَعْرة علف لدوابكم» فقال رسول الله ﷺ: «فلا تستنجوا بهما فإنهما طعام إخوانكم»[3].

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٤٣).

(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٤٥).

(٣) مسلم، كتاب الصلاة (١/ ٣٣٢ رقم ١٥٠ ـ ٤٥٠).

كان هذا الفتح العظيم، والنصر المبين في عالم الجن إرهاصًا وتمهيدًا لفتوحات وانتصارات عظيمة في عالم الإنس، فقد كان اللقاء مع وفد الأنصار بعد عدة أشهر(١).

المبحث الرابع

الإسراء والمعراج.. ذروة التكريم

نرى أن لهذه المعجزة الجليلة أهدافًا تتمثل في أمور أهمها:

أَن اللهﷻ أراد أن يتيح لرسوله فرصة الاطلاع على المظاهر الكبرى لقدرته، حتى يملأ قلبه ثقة فيه، واستنادًا إليه، حتى يزداد قوة في مهاجمة سلطان الكفار القائم في الأرض، كما حدث لموسى عليه السلام، فقد شاء الله أن يريه عجائب قدرته، فلما ملأ قلبه بمشاهدة هذه الآيات الكبرى، قال له بعد ذلك: ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ [طه: الآية ١٩ ـ ٢٣].

في رحلة الإسراء والمعراج أطلع الله نبيه على هذه الآيات الكبرى، توطئة للهجرة، ولأعظم مواجهة ـ على مدى التاريخ ـ للكفر والضلال والفسوق، والآيات التي رآها رسول الله ﷺ كثيرة: الذهاب إلى بيت المقدس، العروج إلى السماء، رؤية الغيب الذي دعا إليه الأنبياء والمرسلون، الملائكة، السموات، الجنة والنار، نماذج من النعيم والعذاب.

كان حديث القرآن الكريم عن الإسراء، في سورة الإسراء، وعن المعراج في سورة النجم، وذكر حكمة الإسراء في سورة الإسراء بقوله: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ [الإسرَاء: الآية ١]. وفي سورة النجم بقوله: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [النّجم: الآية ١٨]. وفي الإسراء والمعراج علوم وأسرار ودقائق ودروس وعبر(٢).

يقول الأستاذ أبو الحسن الندوي: «لم يكن الإسراء مجرد حادث فردي بسيط، رأى فيه رسول الله ﷺ الآيات الكبرى، وتجلى له ملكوت السماوات والأرض، مشاهدةً وعيانًا ـ بل زيادة إلى ذلك ـ اشتملت هذه الرحلة النبوية الغيبية على معان دقيقة كثيرة، وشارات حكيمة، بعيدة المدى: فقد ضمت قصة الإسراء، وأعلنت السورتان الكريمتان اللتان نزلتا في شأنه (الإسراء)، (النجم) أن محمدًا ﷺ هو نبي القبلتين، وإمام المشرقين والمغربين، ووارث الأنبياء قبله، وإمام الأجيال بعده، فقد التقت في شخصه وفي إسرائه مكة بالقدس، والبيت الحرام بالمسجد الأقصى، وصلى بالأنبياء خلفه، فكان هذا إيذانًا بعموم رسالته وخلود إمامته وإنسانية تعاليمه، وصلاحيتها لاختلاف المكان والزمان، وأفادت هذه السورة الكريمة تعيين

---

(١) انظر: التربية القيادية (١/ ٤٤٥).

(٢) انظر: الأساس في السنة، سعيد حوى (١/ ٢٩١، ٢٩٢).

شخصية النبي ﷺ، ووصف إمامته، وقيادته، وتحديد مكانة الأمة التي بعث فيها، وآمنت به، وبيان رسالته، ودورها الذي ستمثله في العالم، ومن بين الشعوب والأمم»[١].

أولاً: قصة الإسراء والمعراج كما جاءت في بعض الأحاديث:

عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أُتِيتُ بالبراق ـ وهو دابةٌ أبيضُ طويل فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه ـ قال: فركبته حتى أَتيت بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة[٢] التي يَرْبِطُ الأنبياء. قال: ثم دخلت المسجد، فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فجاءني جبريل عليه السلام بإناء من خمر، وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترت الفطرة»[٣] فذكر الحديث[٤].

وفي حديث مالك بن صعصعة: أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به، قال: «بينما أنا في الحطيم»[٥] ـ وربما قال: «في الحجر ـ مضطجعًا إذ أتاني آت[٦] فقدَّ» قال: وسمعته يقول: «فشقَّ ما بين هذه إلى هذه» فقلت للجارود ـ وهو إلى جانبي: ما يعني به؟ قال: من ثُغْرة نَحره[٧] إلى شعرته[٨]، وسمعته يقول: من قَصِّه[٩] إلى شعرته، «فاستخرج قلبي، ثم أُتِيت بطَست من ذهب مملوءة إيمانًا فغسل قلبي، ثم حُشِي ثم أُعيد ثم أُتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار أبيضَ» فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟ قال أنس: نعم، «يضع خَطْوَهُ عند أقصى طَرْفه[١٠]، فحُمِلت عليه، فانطلق بي جبريل حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح[١١]، فقيل: من هذا؟

قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم. قيل: مرحبًا به[١٢] فنعم المجيء جاء، فَفَتَحَ، فلما خَلَصتُ فإذا فيها آدم، فقال: هذا أبوك آدم، فسلِّم عليه، فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح،

---

(١) انظر: الأساس في السنة (١/ ٢٩٢).
(٢) الحلقة: المراد حلقة باب مسجد بيت المقدس.
(٣) الفطرة: الإسلام، والاستقامة.
(٤) مسلم: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ (رقم ٢٥٩ـ ١٦٢).
(٥) الحطيم: هو مابين الركن والمقام.
(٦) آت: هو جبريل عليه السلام.
(٧) ثغرة النحر: الموضع المنخفض في أدنى الرقبة من الأمام.
(٨) شعرته: شعر عانته وهو ما ينبت حول العانة.
(٩) القص: رأس عظام الصدر.
(١٠) يضع خَطوه عند أقصى طرفه: يضع رجله عند منتهى بصره.
(١١) استفتح: طلب فتح باب السماء الدنيا.
(١٢) مرحبًا به: أصاب رحبًا وسعة.

والنبي الصالح، ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الثانية فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، فَفَتَحَ، فلما خَلَصْتُ، إذا يحيى وعيسى، وهما ابنا الخالة، قال: هذا يحيى وعيسى، فَسَلِّمْ عليهما فسلمت، فردًا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صَعِد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فَفُتِح، فلما خلصت، إذا يوسف، قال: هذا يوسف فسلِّم عليه فسلمت عليه، فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فَفُتِح، فلما خلصت، فإذا إدريس، قال: هذا إدريس، فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء الخامسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: أو قد أرسل إليه؟ قال: نعم، قيل: مرحبًا به فنعم المجيء جاء، فَفُتِح، فلما خلصت، فإذا هارون، قال: هذا هارون، فسلِّم عليه، فسلمت عليه فردَّ، ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

ثم صَعِدَ بي حتى أتى السماء السادسة فاستفتح. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصت، فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلِّم عليه، فسلمتُ عليه فردَّ ثم قال: مرحبًا بالأخ الصالح، والنبي الصالح؛ فلما تجاوزت بكى، قيل له: ما يبكيك؟ قال: أبكي لأن غلامًا[1] بُعِث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك، قال: محمد، قيل: وقد بعث إليه؟ قال: نعم، قال: مرحبًا به ونعم المجيء جاء، فلما خلصت فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلِّم عليه، قال: فسلمت عليه فرد السلام، ثم قال: مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح ثم رُفعتْ لي[2] سدرة المنتهى، فإذا نَبْقُها مثل[3]

---

(١) أبكي لأن غلامًا: ليس هذا على سبيل النقص بل على سبيل التنويه بقدرة الله وعظيم كرمه، (فتح الباري عند الحدث).

(٢) رُفِعتْ لي: قربت لي.

(٣) النبق: هو ثمر السدر.

قِلال هَجَر[١]، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، قال: هذه سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان، ونهران ظاهران، فقلت: ما هذان يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران، فالنيل والفرات، ثم رفع لي البيت المعمور.

ثم أُتِيتُ بإناء من خمر، وإناء من لبن، وإناء من عسل، فأخذت اللبن، فقال: هي الفطرة[٢] التي أنت عليها وأُمتُك.

ثم فرضت عليَّ الصلاة خمسين صلاةً كل يوم، فرجعت فمررت على موسى فقال: بما أُمرت؟ قال: أمرت بخمسين صلاة كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة[٣]، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى، فقال: مثله، فرجعت، فَوَضَع عني عَشْرًا، فرجعتُ إلى موسى، فقال مثله... فرَجَعتُ فأمرت بعَشْرِ صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى فقال: بما أمرت؟ قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم. قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأُسَلِّم، قال: فلما جاوزتُ نادى مناد: أمضيتُ فريضتي، وخففت عن عبادي»[٤].

كانت حادثة الإسراء والمعراج قبل هجرته ﷺ بسنة، هكذا قال القاضي عياض في الشفا[٥].

فلما رجع رسول الله ﷺ من رحلته الميمونة أخبر قومه بذلك، فقال لهم في مجلس حضره المطعم بن عدي، وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة، فقال: «إني صليت الليلة العشاء في هذا المسجد، وصليت به الغداة، وأتيت فيما دون ذلك بيت المقدس، فنشر لي رهط من الأنبياء منهم إبراهيم، وموسى وعيسى، وصليت بهم وكلمتهم» فقال عمرو بن هشام كالمستهزىء به: صفهم لي، فقال: «أما عيسى، ففوق الربعة، ودون الطول، عريض الصدر، ظاهر الدم، جعد أشعر تعلوه صُهْبَة[٦]، كأنه عروة بن مسعود الثقفي. وأما موسى فضخم آدم

---

(١) قلال هجر: يضرب بها المثل لكبرها، وهجر قرية في البحرين، والقلة: الجرة الكبيرة.

(٢) الفطرة: دين الإسلام.

(٣) عالجتهم أشد المعالجة: مارست بني إسرائيل أشد الممارسة.

(٤) البخاري، في مناقب الأنصار، باب في المعراج (رقم ٣٨٨٧).

(٥) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى (١/١٠٨).

(٦) صُهْبة: بياض بحمرة.

طوال، كأنه من رجال شنوءة، متراكب الأسنان، مقلص الشفة، خارج اللثة، عابس، وأما إبراهيم فوالله إنه لأشبه الناس بي، خَلقاً وخُلقاً»[١].

فقالوا: يا محمد! فصف لنا بيت المقدس، قال: «دخلت ليلاً وخرجت منه ليلاً» فأتاه جبريل بصورته في جناحه، فجعل يقول: «باب منه كذا، في موضع كذا، وباب منه كذا، في موضع كذا».

ثم سألوه عن غيرهم، فقال لهم: «أتيت على عير بني فلان بالروحاء، قد أضلوا ناقة لهم، فانطلقوا في طلبها، فانتهيت إلى رحالهم ليس بها منهم أحد، وإذا قدح ماء فشربت منه، فاسألوهم عن ذلك» قالوا: هذه والإله آية: «ثم انتهيت إلى عير بني فلان، فنفرت مني الإبل، وبرك منها جمل أحمر، عليه جُوالِق[٢] مخطط ببياض، لا أدري أكسر البعير، أم لا، فاسألوهم عن ذلك» ـ قالوا: هذه والإله آية ـ «ثم انتهيت إلى عير بني فلان في التنعيم، يقدمها جمل أورق[٣]، وهاهي تطلع عليكم من الثَّنِيَّة[٤]»، فقال الوليد بن المغيرة: ساحر، فانطلقوا فنظروا، فوجدوا الأمر كما قال، فرموه بالسحر، وقالوا: صدق الوليد بن المغيرة فيما قال[٥].

كانت هذه الحادثة فتنة لبعض الناس، فارتد ناس ممن كان آمنوا به وصدقوه وسعوا بذلك إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فقالوا: هل لك إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به الليلة إلى بيت المقدس.

قال: أو قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: أو تصدقه أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وجاء قبل أن يصبح؟

قال: نعم إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمي أبو بكر الصديق[٦].

ثانياً: فوائد ودروس وعبر:

١ ـ بعد كل محنة منحة، وقد تعرض رسول الله ﷺ لمحن عظيمة، فهذه قريش قد سدت الطريق في وجه الدعوة في مكة، وفي ثقيف، وفي قبائل العرب، وأحكمت الحصار ضد الدعوة ورجالاتها، من كل جانب، وأصبح النبي ﷺ في خطر بعد وفاة عمه أبي طالب أكبر حُماته، ورسول الله ﷺ ماض في طريقه، صابر لأمر ربه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا حرب محارب، ولا كيد مستهزىء، فقد حان الوقت للمنحة العظيمة، فجاءته حادثة

---

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٣٨، ٣٩).

(٢) الجُوالِق: هو العدْل الذي يوضع فيه المتاع.

(٣) أورق: أي لونه أبيض وفيه سواد.

(٤) الثنية: أي الطريق الجبلي.

(٥) المطالب العالية للحافظ ابن حجر (٤/ ٢٠١ـ ٢٠٤) وعيون الأثر (١/ ١٤٠ـ ١٤٢)، وابن هشام بالغًا عن أم هانىء رضي الله عنها (٢/ ١١).

(٦) المستدرك (٣/ ٦٢) قال الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

الإسراء والمعراج، على قدر من رب العالمين، فيعرج به من دون الخلائق جميعًا، ويكرمه على صبره وجهاده، ويلتقي به مباشرة دون رسول ولاحجاب، ويطلعه على عوالم الغيب دون الخلق كافة، ويجمعه مع إخوانه من الرسل في صعيد واحد، فيكون الإمام والقدوة لهم، وهو خاتمهم وآخرهم(١).

٢ - إن الرسول ﷺ كان مُقدمًا على مرحلة جديدة، مرحلة الهجرة، والانطلاق لبناء الدولة، يريد الله تعالى لِلَّبِنَات الأولى في البناء، أن تكون سليمة قوية متراصة متماسكة، فجعل الله هذا الاختبار والتمحيص، ليخلص الصف من الضعاف المترددين، والذين في قلوبهم مرض، ويثبت المؤمنين الأقوياء الخلص، الذين لمسوا عيانًا صدق نبيهم بعد أن لمسوه تصديقًا، وشهدوا مدى كرامته على ربه، فأي حظ يحوطهم وأي سعد يغمرهم، وهم حول هذا النبي المصطفى، وقد آمنوا به، وقدموا حياتهم فداء له ولدينهم، كم يترسخ الإيمان في قلوبهم أمام هذا الحدث الذي تم بعد وعثاء الطائف، وبعد دخول مكة بجوار، وبعد أذى الصبيان والسفهاء(٢).

٣ - إن شجاعة النبي ﷺ العالية، تتجسد في مواجهته للمشركين بأمر تنكره عقولهم، ولا تدركه في أول الأمر تصوراتهم، ولم يمنعه من الجهر به الخوف من مواجهتهم، وتلقي نكيرهم واستهزائهم، فضرب بذلك ﷺ لأمته أروع الأمثلة في الجهر بالحق أمام أهل الباطل، وإن تحزبوا ضد الحق، وجندوا لحربه كل مافي وسعهم، وكانت من حكمة النبي ﷺ في إقامة الحجة على المشركين، بأن حدثهم عن إسرائه إلى بيت المقدس، وأظهر الله له علامات تلزم الكفار التصديق، وهذه العلامات هي:

* وصف النبي ﷺ بيت المقدس، وقد أقروا بصدق الوصف، ومطابقته للواقع الذي يعرفونه.

* إخباره عن العير التي بالروحاء.

* إخباره عن العير الثانية.

* إخباره عن العير الثالثة التي بالأبواء، وقد تأكد المشركون؛ فوجدوا أن ما أخبرهم به الرسول ﷺ كان صحيحًا، فهذه الأدلة الظاهرة كانت مفحمة لهم ولا يستطيعون معها أن يتهموه بالكذب، كانت هذه الرحلة العظيمة، تربية ربانية رفيعة المستوى، وأصبح ﷺ يرى الأرض كلها، بما فيها من مخلوقات، نقطة صغيرة في ذلك الكون الفسيح، ثم ما مقام كفار مكة في هذه النقطة؟ إنهم لا يمثلون إلا جزءًا يسيرًا جدًّا من هذا الكون، فما الذي سيفعلونه تجاه من اصطفاه الله تعالى من خلقه، وخصه بتلك الرحلة العلية الميمونة،

(١) انظر: التربية القيادية (١/٤٤٧).

(٢) انظر: التربية القيادية (١/٤٥١).

وجمعه الملائكة، والأنبياءت، وأراه السموات السبع، وسدرة المنتهى، والبيت المعمور، وكلّمه جل وعلا[١].

٤ ـ يظهر إيمان الصديق، ﷺ، القوي في هذا الحدث الجلل، فعندما أخبره الكفار، قال بلسان الواثق: لئن كان قال ذلك لقد صدق، ثم قال: إني لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك، أصدقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، وبهذا استحق لقب الصديق، وهذا منتهى الفقه واليقين، حيث وازن بين هذا الخبر، ونزول الوحي من السماء، فبيَّن لهم أنه إذا كان غريبًا على الإنسان العادي، فإنه في غاية الإمكان بالنسبة للنبي ﷺ[٢].

٥ ـ إن شرب رسول الله ﷺ اللبن حين خُيِّر بينه وبين الخمر، وبشارة جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ هديت للفطرة، تؤكد أن هذا الإسلام دين الفطرة البشرية، التي ينسجم معها، فالذي خلق الفطرة البشرية، خلق لها هذا الدين، الذي يلبي نوازعها واحتياجاتها، ويحقق طموحاتها، ويكبح جماحها: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الرُّوم: الآية ٣٠].

٦ ـ إن صلاة النبي ﷺ بالأنبياء دليل على أنهم سلموا له بالقيادة، والريادة، وأن شريعة الإسلام نسخت الشرائع السابقة، وأنه وَسعَ أتباعَ هؤلاء الأنبياء ما وسع أنبياءَهم؛ أن يسلموا بالقيادة لهذا الرسول ولرسالته، التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها.

إن على الذين يعقدون مؤتمرات التقارب بين الأديان أن يُدركوا هذه الحقيقة، ويدعوا إليها، وهي ضرورة الانخلاع من الديانات المنحرفة، والإيمان بهذا الرسول ﷺ ورسالته، وعليهم أن يدركوا حقيقة هذه الدعوات المشبوهة، التي تخدم وضعًا من الأوضاع، أو نظامًا من الأنظمة الجاهلية.

٧ ـ إن الربط بين المسجد الأقصى، والمسجد الحرام وراءه حكم، ودلالات، وفوائد منها:

* أهمية المسجد الأقصى بالنسبة للمسلمين، إذ أصبح مسرى رسولهم ﷺ، ومعراجه إلى السماوات العلى، وكان لا يزال قبلتهم الأولى طيلة الفترة المكية، وهذا توجيه وإرشاد للمسلمين بأن يحبوا المسجد الأقصى، وفلسطين لأنها مباركة ومقدسة.
* الربط يشعر المسلمين بمسئوليتهم نحو المسجد الأقصى، بمسؤولية تحرير المسجد الأقصى من أوضار الشرك، وعقيدة التثليث، كما هي أيضًا مسئوليتهم تحرير المسجد الحرام من أوضار الشرك وعبادة الأصنام.
* الربط يشعر بأن التهديد للمسجد الأقصى، هو تهديد للمسجد الحرام وأهله، وأن النَّيل

(١) انظر: التاريخ الإسلامي للحميدي (٣/ ٤١، ٤٢).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٤٣).

من المسجد الأقصى، توطئة للنَّيل من المسجد الحرام، فالمسجد الأقصى بوابة الطريق إلى المسجد الحرام، وزوال المسجد الأقصى من أيدي المسلمين، ووقوعه في أيدي اليهود، يعني أن المسجد الحرام، والحجاز قد تهدد الأمن فيهما، واتجهت أنظار الأعداء إليهما لاحتلالهما.

والتاريخ قديمًا وحديثًا يؤكد هذا، فإن تاريخ الحروب الصليبية، يخبرنا أن (أرناط) الصليبي صاحب مملكة الكرك، أرسل بعثة للحجاز للاعتداء على قبر الرسول ﷺ، وعلى جُثمانه في المسجد النبوي، وحاول البرتغاليون (النصارى الكاثوليك) في بداية العصور الحديثة، الوصول إلى الحرمين الشريفين، لتنفيذ ماعجز عنه أسلافهم الصليبيون، ولكن المقاومة الشديدة التي أبداها المماليك، وكذا العثمانيون، حالت دون إتمام مشروعهم الجهنمي، وبعد حرب (١٩٦٧م) التي احتل اليهود فيها بيت المقدس، صرخ زعماؤهم بأن الهدف بعد ذلك، احتلال الحجاز، وفي مقدمة ذلك مدينة رسول الله ﷺ وخيبر.

لقد وقف دافيد بن غوريون زعيم اليهود، بعد دخول الجيش اليهودي القدس، يستعرض جنودًا وشبانًا من اليهود، بالقرب من المسجد الأقصى، ويلقى فيهم خطابًا ناريًّا، يختتمه بقوله: «لقد استولينا على القدس ونحن في طريقنا إلى يثرب»[(١)].

ووقفت غولدا مائير، رئيسة وزراء اليهود، بعد احتلال بيت المقدس، وعلى خليج إيلات العقبة، تقول: «إنني أشم رائحة أجدادي في المدينة والحجاز، وهي بلادنا التي سوف نسترجعها»[(٢)].

وبعد ذلك نشر اليهود خريطة لدولتهم المنتظرة التي شملت المنطقة من الفرات إلى النيل، بما في ذلك الجزيرة العربية، والأردن، وسورية، والعراق، ومصر، واليمن، والكويت، والخليج العربي كله. ووزعوا خريطة دولتهم هذه بُعيد انتصارهم في حرب ١٩٦٧م في أوروبا[(٣)].

٨ - أهمية الصلاة وعظيم منزلتها: وقد ثبت في السنة النبوية أن الصلاة فرضت على الأمة الإسلامية في ليلة عروجه ﷺ إلى السمٰوات، وفي هذا كما قال ابن كثير: «اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها»[(٤)]، فعلى الدعاة أن يؤكدوا أهمية الصلاة، والمحافظة عليها، وأن يذكروا فيما يذكرون، من أهميتها، ومنزلتها، كونها فرضت في ليلة المعراج، وأنها من آخر ما أوصى به رسول الله ﷺ قبل موته[(٥)].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢١٤).

(٢) جريدة الدستور الأردنية العدد (٤٦١٣) بقلم: أميل الغوري. نقلاً عن السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢١٤).

(٣) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢١٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٣).

(٥) انظر: المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة (٢/ ٩٣).

٩ ـ تحدث الرسول ﷺ عن مخاطر الأمراض الاجتماعية، وبيَّن عقوبتها، كما شاهد ذلك في ليلة الإسراء والمعراج، ومن هذه الأمراض وعقوبتها:

* عقوبة جريمة الغيبة والمغتابين، فقد رأى رسول الله ﷺ أناسًا يأكلون الجيف، فأخبره جبريل «هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس»(١).

* عقوبة أكلة أموال اليتامى، فقد رأى رسول الله ﷺ رجالاً لهم مشافر شفاه كبيرة، كشفاه البعير، في أيديهم قطع من نار كالأفهار (أي الحجارة) يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة أموال اليتامى ظلمًا(٢).

* أكلة الرِّبا، فقد أتى النبي ﷺ على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات، ترى من خارج بطونهم، فأخبره جبريل: هؤلاء أكلة الربا(٣).

* وذكرت الروايات عقوبة الزناة، ومانعي الزكاة، وخطباء الفتنة، والتهاون في الأمانة(٤).

* ثواب المجاهدين، ففي ليلة الإسراء والمعراج مرّ رسول الله ﷺ على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عادوا كما كان، فأخبر جبريل: «هؤلاء المجاهدون في سبيل الله، تضاعف لهم الحسنات بسبعمائة ضعف وما أنفقوا من شيء فهو يُخْلَف»(٥).

١٠ ـ إدراك الصحابة لأهمية المسجد الأقصى: أدرك الصحابة ﷺ، مسؤوليتهم نحو المسجد الأقصى، وهو يقع أسيرًا تحت حكم الرومان، فحرروه في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، وظل ينعم بالأمن والأمان، حتى عاث الصليبيون فسادًا فيه بعد خمسة قرون، من هجرة المصطفى، ومكثوا ما يعادل قرنًا يعيثون فسادًا، فحرره المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وهاهو ذا يقع تحت الاحتلال اليهودي، فما الطريق إلى تخليصه ؟(٦).

الطريق إلى تخليصه الجهاد في سبيل الله، على المنهج الذي سار عليه الصحابة الكرام ﷺ.

---

(١) الفتح الرباني للساعاتي (٢٠/ ٢٥٥) وقال: صحح إسناده الحافظ ابن كثير.

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٨/ ٢٠٠).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٤).

(٤) تفسير الطبري (١٥/ ٧) والفتح الرباني (٢٠/ ٢٥٧).

(٥) انظر: الخصائص الكبرى (١/ ١٧١) والسيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٢٠).

(٦) انظر: السيرة النبوية لأبي فارس (ص ٢٢٠).